40

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة التاسعة / (يناير - فبراير) ٢٠١٤

لو التقيا

ألا ليتكَ وجدتَ فارسك،

حبّذا الفارسُ الغريب والجوادُ اليتيم لو التقيا،

وليت صهيلَه الأصيل بهُتافه الوثّاب امتزجا،

ودوّى ذلك الصوتُ الكريم في الآفاق وردّدَا...

* * *

٢ لعلّنا نُبعَث من جديد
فتح الله كولن

١٠ دروس راهنة من أداء فريضة التدبر
د. سمير بودينار

٢٩ نظرية الانبثاق وحتمية التواصل
د. محمد باباعمي

الترقُّب الفعَّال والانبعاث المرتقب

نطلُّ على "حراء" وهي في عليائها، ونرنو إلى "حراء" وهي في ذُراها... ها قد أدركَتْ في عمرها الأربعين عددًا، وبلغت في انبساطها آماد المغربين والمشرقين؛ وهي اليومَ تسري ليلاً، وتعرج نهارًا، على صهوة "الفارس الأصيلِ المنتظَر"، يهزأ بالمفاوِز مهما بعُدت شُقَّتها، ويشمخ على السُّحب الثِّقال مهما سما مقامها.

نَعَم، إنَّ فارسنا جهوريُّ الصوت؛ ذلك أنه من كلام الله تعالى يتروَّى، ومن سنة نبيّه الحبيب يتغذَّى، لأجل ذلك نحن نرقبه بشوق وحنين، وننظر على إثره "بعثًا جديدًا" و"نفخة روح خارقة": نسأل الله أن يعجِّل بها، وألاَّ يطول انتظارها.

يقول الأستاذ "فتح الله" في مقاله المنحوت نحتًا رفيقًا: "مهما يكن الأمر، فإننا عاهدنا أنفسنا أن نثبت على هذا الترقُّب الفعّال؛ حتى يشرق يوم نستردُّ فيه قيمًا أضعناها منذ أمد بعيد. ولكن، يا ترى، هل العُدَّة التي أعددناها، وتحفُّزنا الروحي، وموقعُنا من الحقِّ جلَّ وعلا، موافق لمقتضى ذلك الانبعاث المرتقب؟!".

للإجابة على هذا "السؤال المصير"، ولتحقيق هذا "الشرط الخطير"، كان لزامًا علينا أن نعالج تربية الإنسان الراشد، بمختلف مداخله ومشاربه، ومن ثَمَّ نسأل: "كيف نربّي أبناءنا؟"، ثم نسائل أنفسنا عن "الفرق بين التربية والتعليم"، ومن ثَمَّ نحرص على تلقين أبنائنا شعيرة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

وإذا ما اشتدَّ عود هؤلاء "الفتيةُ الأملُ"، وصاروا بفضل الله شبابًا يافعين، أخذنا بأيديهم مستنطقين المستقبل في "سؤال مستقبل ثورة الربيع الثقافي العربي".

غير أنَّ المستقبل لا يزهو ولا يزدهر إلاَّ إذا اعتنينا بالحاضر والراهن، فأدّينا "فريضة التدبر الحضاري"، وأقمنا وزنًا لشبكة العلاقات الاجتماعية، والفكرية، والثقافية؛ مستمدين المنطلق من "نظرية الانبثاق".

ولا غرو أنَّ للحاضر ماضٍ، وأنَّ للماضي معالم لنا، منها نستمدُّ الأمل، ومن خلالها نؤسِّس للعمل؛ ولذلك حلَّل الأستاذ محمد الشرقاوي "وثيقة المدينة المنورة"، وأبان الأستاذ عماد الدين خليل عن "الدور المركزي للأتراك في حضارة الأمة الإسلامية"، وعرض الأستاذ خلف أحمد صورة "البيمارستانات" في العمارة الإسلامية، وناقش الأستاذ محمد كول كونول "تناغم المعنى والمبنى في الهندسة المعمارية".

ولقد كان لرائد علم الفلك "ألوغ بك" حضوره المثالي في مسيرة "الانبعاث المرتقب"، كما كان "للمعماري سنان" مكانته المحورية في البحث عن غدنا الحضاريّ... ذلك الغد الذي لن تشرق شمسه إلاَّ بعد "ترقُّب فعال"، وربط محكم بين "الحال والقال".

أيها المعانون الصابرون... يا مُضنَون أبشروا... هذا الربيع بالبشرى آت... وبالدفء العذب قادم... فدعواتكم إلى السماء رُفعت... وتضرعاتكم سُمعت... وأمنياتكم قبلت.

فحراء اليوم، مأوى وملاذٌ، ومرتع خصبٌ، ومحطة للإقلاع، وهي هي لم تتبدَّل ولم تتغير... هي بكم، وهي لكم، وهي منكم... هي أنتم: "فرسان سالكون... فرسان سائحون... وبالطريق هائمون".

المحتويات

لعلّنا نُبعَث من جديد / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
إلهي / عمر البخاري (شعر)	٦
كيف نربّي أبناءنا؟ / أ.د. بركات محمد مراد (تربية)	٧
جمال في جمال / حراء (ألوان وظلال)	٩
دروس راهنة من أداء فريضة التدبر / د. سمير بودينار (قضايا فكرية)	١٠
لماذا توجد الكمأة في الصحراء؟ / نيروز بن زقوطة (علوم)	١٤
الدور المركزي للأتراك في الأمة الإسلامية / أ.د. عماد الدين خليل (تاريخ وحضارة)	١٧
التربية مع التعليم / د. أنس كاريتش (تربية)	٢١
قيم التعايش المشترك ومبادئه في وثيقة المدينة / د. محمد الشرقاوي (تاريخ وحضارة)	٢٤
نظرية الانبثاق وحتمية التواصل / د. محمد باباعمي (قضايا فكرية)	٢٩
الآذان شبعى والعيون جوعى / فتح الله كولن (الموشور)	٣٢
أبناؤنا وشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر / د. صالح بن علي أبو عرّاد (تربية)	٣٤
مفهوم المجتمع الإسلامي المثالي / د. طارق الصادق عبد السلام (قضايا فكرية)	٣٦
الفرسان / حراء (ألوان وظلال)	٣٩
وحيد القرن يروي قصته / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٤٠
البيمارستانات / خلف أحمد محمود أبو زيد (تاريخ وحضارة)	٤٤
الشباب ومستقبل ثورة الربيع الثقافي العربي / د. مريم آيت أحمد (قضايا فكرية)	٤٨
تناغم المعنى والمبنى في الهندسة المعمارية / محمد كول كونول (ثقافة وفن)	٥٢
مفهوم الفكر الإسلامي وصلته بالعقل والوحي / د. إسحاق السعدي (قضايا فكرية)	٥٦
الربيع ننتظر / حراء (ألوان وظلال)	٥٩
أُلوغ بك.. من رواد علم الفلك / أ.د. الصفصافي أحمد القطوري (تاريخ وحضارة)	٦٠
سنان.. مهندس علم الزلازل – نقار الخشب / نور الدين صواش (محطات علمية وحضارية)	٦٢

لعلّنا نُبعَث من جديد

إننا -أبناءَ هذه الجغرافيا المثخنة بالجراح، المثقلة بالأحزان- كنّا وما زلنا نترقب منذ عقود وعقود نسمة بعث أو نفخة صور خارقة، نسأل الله أن يعجّل بها وألاّ يَطول انتظارُها. ومهما يكن الأمر فإننا عاهدنا أنفسنا أن نَثبُت على هذا "الترقّب الفعّال" حتى يُشرق يوم نستردّ فيه قِيمًا أضعناها منذ أمد بعيد. ولكن، يا تُرَى، هل العُدّة التي أعددناها، وتحفُّزُنا الروحيّ، وموقعُنا من الحق جل وعلا، موافق لمقتضى ذلك "الانبعاث المرتقب"؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنه انتظار سلبي لا يُسمّى "ترقّبًا" قطّ. وإذا كان الانبعاث الذي نترقبه -بعد هذا الموت الطويل- هو التّحقق في الإحساس والتفكير والحياة القلبية والروحية بـ"أصالتنا الذاتيّة" -وهو كذلك بلا شك- فذلك يستوجب منّا مراجعة جادة لما نحن عليه وما نتطلع إليه من غايات عظيمة لنوفِّق بينهما. إذ إن "قانون العلّيّة" يقتضي مناسبة ضرورية بين انتظاراتنا الكبيرة وأدائنا الراهن. لذا فإنّ حمل تطلعات جليلة كهذه، ليس من شأن جَهلة لا نصيب لهم من "العلم

والمعرفة"، أو بؤساءَ لا يملكون "غاية سامية"، أو عُطّلٍ لا يحملون بين جوانحهم "همّ قضية"، أو محرومين جديرٌ بهم وصفُ "فقراء الحكمة".

إن استشرافًا جللاً وحلمًا عظيمًا كهذا، الأحقُّ به هُم فرسانٌ مزجوا العلم بالعرفان، ونذروا أنفسهم للحقيقة. وإذا قُدّر لحظّنا المعكوس أن يتغير يومًا ما، فلن يأتي التغيير -بمقتضى السنن الفطرية- إلا على أيديهم إن شاء الله. هكذا جرت سنة الله حتى اليوم، وكذلك ستجري بعد اليوم.

أجل، سيواصل أعداء الداخل والخارج في شنّ الغارة تلو الأخرى.. ويواصل الأخلاّء في التخلّي عن الوفاء المؤمَّل منهم.. ويَعقُب الهدمَ هدمٌ آخر، والتخريبَ تخريبٌ آخر.. وتتوالى الضربة تلو الأخرى على جذورنا الروحية والمعنوية.. وتتفطر القلوبُ أملاً في نسماتِ مَحبّة.. ويدوّي أنين الموت في جميع الأطراف. ولكن إزاء هذه الصور القاتمة كلها، لن يغيب من المشهد قطّ "فرسانُ البعث" الذين يبثّون الحياة في كل مكان.

لقد تعرضت منطقتنا في فترات تاريخية مختلفة لشروخ وكوارث لا تعدّ ولا تحصى.. فقد سُقي إنسانُنا السمَّ الزُّعافَ مرات ومرات، وسُمِلت عيناه بالحميم مرارًا.. وسُلبت منه قيمُه الدينية ومبادئه الوطنية، وهُجِّر بعيدًا ليقاسي أشدّ أنواع الاغتراب مرارة وإيلامًا.. سُرقت شمسُه، وأطفئ قمرُه، وأوقع في سلسلة متشابكة من كسوف وخسوف. لقد مُنِي بالأمرّين معًا، لقي من العدوّ شدّة، ومن الخليل جفوة، فتعالت أنّاته. وما أن تهاوت شرذمة من الأشرار وخمد أُوارُها حتى خلَفَتها شراذم أخرى. فرأى إنسانُنا من شراسة اللاحق وبغيِه ما حمله للترحّم على السابق، وما زال يتتابع عليه اضطهادُ المتكبرين وقهرُ المستبدين وحقدُ أعداء الدين وحنقُهم حتى استحالت حياته جهنمَ حمراء.

وما أشبهَ اليومَ بالبارحة.. فها هي شتى ألوانِ القهر والاضطهاد والمطاردة.. وتلك جهود خبيثة تعمل على

إذا كان الانبعاث الذي نترقبه هو التّحققَ في الإحساس والتفكير والحياة القلبية والروحية بـ"أصالتنا الذاتيّة" -وهو كذلك بلا شك- فذلك يستوجب منّا مراجعة جادة لما نحن عليه وما نتطلع إليه من غايات عظيمة لنوفِّق بينهما.

حراء

طمس بصيص الأمل لدى إنساننا.. وهذه حقوق تُنتَهك وعدالة تُمتهَن.. وثمة عقائد تُحظَر ممارستها على معتنقيها من أفراد ودول ومجتمعات، ويُعانون كما لو أنهم في محاكم التفتيش فتكًا وبطشًا. ورغم ذلك كله، فإن مشاعل الأمل لا تفتأ تتلألأ هنا وهناك -وإن لم تكن في المستوى المطلوب- لتبشر بما تنطوي عليه من انبعاثات شتى متعاقبة في قابِل الأيام.. كما أن الأرواح المضيئة التي تقوّم كلَّ سلوك وكلَّ ما يرِدها من كلام في ضوء محبة عارمة وأدب رفيع، تمضي في رحلتها نحو إحياء قيمنا الإنسانية، دون أن تخفف من سرعة سيرها، أو تتعثر بأية عقبة تعترضها من غِلظة أو كراهية أو عدوان. والحقّ أنّ من صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه ووفّوا بعهدهم له، تولاهم وأحاطهم برعايتِه -لا حُرموا ظلال تلك الرعاية- ولم يتركهم وحدهم قطّ في مواجهة الظَّلَمة والمستبدين.

صحيح أنه قد وقع أن انتفخت فكرةُ الباطل، وتمكنت حينًا من أن تملأ الأجواء بصخبها الأجوف، فهبّت وأرعدت وأبرقت لتلقي الرعب في القلوب وتثير البلبلة في النفوس، وسلكت كلَّ السبل لكتم أنفاس الحق وإخماد شمعته.. بيد أن حالات التراجع والانكماش التي سرت في شرايين الأمة جراء ذلك، كانت مؤقتة على الدوام حيث دوّى نداء الحقيقة في كل مكان أبلغ وأقوى مما كان. ولئن أمهل الله الظالمين مرة بعد أخرى في عهدٍ ما، إلا أنّه لم يُهمِلهم قط، بل غالبًا ما كان يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ويسومهم سوء العذاب أوانَ مساسهم "غيرة الله"؛ وبينما يفعل ذلك بالظالمين يمدّ

hiramagazine.com

يد العناية والرحمة لمن ظُلِموا واستُضعِفوا في الأرض ويرفعهم إلى أعلى عليين، ويهديهم سواء السبيل في سعيهم لجمع الشمل ولَمّ الشّعَث، ويبصّرهم بمناهج الانبعاث العلمي والاجتماعي والعقلي والقلبي والروحي على حدّ سواء.

ألا إن هؤلاء الفرسان الذين أخذ -وسيأخذ- الله بأيديهم ويؤيدهم برعايته ونصره، سترونهم حتمًا إن لم يكن اليوم فغدًا، يعبّرون عمّا تموج وتتدفق به أرواحهم من مشاعر الشفقة العميقة بمعازفَ وأوتار شتى صنعوها من إكسير المحبة والرحمة؛ ويبسطون أجنحة الحماية والرعاية كملائكة الحفظ على المظلومين والمضطهدين جميعًا حيثما حلّوا وارتحلوا، وسيقولون للطغاة والمستبدين الذين أقفرت قلوبهم من الرحمة: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف:٩٢)، بل لن يترددوا بفتح صدورٍ ملؤُها الرأفةُ والشفقةُ ولو لأولئك الذين قضوا حياتهم لا يفكرون إلا في الدم، ولا يتحدثون إلا عن الدم، يسفكونه، ويشربونه، ويبيعون عقولهم به.

لا محالة أنَّ هؤلاء الأبطال سيَظهرون يومًا ما في كلّ مكان وكأن العناية الربّانية قد تمثّلت فيهم، ليسقونا من كوثر البعث كأسًا بعد كأس.. أولئك هم رُوّاد "الغاية السامية"، ورجالُ الإيمان والفاعلية، وفرسان اليقظة والحذر في اتصالهم بالله.. وأولئك هم مظهر الرحمة الواسعة المتمثلة بهذه السّعة وذاك الامتداد.

هذا، وإذا قدّر الله مثلَ هذا البعث على أيدي "فرسان المستوى" هؤلاء، فسوف يبعثهم هم أولاً -بمقتضى السببية- ثم يُعقِب ذلك ببعث عام يشملنا جميعًا وينفخ الحياة فينا من جديد؛ وإننا على يقين أن البعث العام قادم بإذن الله.

وحريّ بالذكر أن المؤمنين الذين لا يحملون في صدورهم غاية سامية أو هدفًا نبيلاً، ومن شحبت عواطفُهم وخمدت جذوةُ حماستهم.. لا يمكن أن يَبعثوا الحياة في أحد أبدًا بعد أن أخفقوا في تحقيق الانبعاث التامّ في ذواتهم. نعم وعَد الله مَن توجّهوا إليه بأعماق قلوبهم بأن يحييهم، وبأن يُحيي بهم الناس، لكنَّه شَرَط لهذا الوعدِ أن يقتفوا أثر الأنبياء في عزمهم وهمتهم وثباتهم، وأن تفيض أنفسهم عزمًا وتصميمًا.

أجل، هذا هو دَيدنُهم، وذاك هو دأبُهم؛ ففي قلوبهم إيمان راسخ لا يتزعزع.. تراهم مرابطين في مواقعهم بقوة خارقة لا تقاوَم.. ولا يكترثون بمضايقات تَدْهمهم من اليمين أو الشمال.. ولا يهتزون إزاء المصائب والابتلاءات قط؛ بل يكونون مصدرًا لرفع معنويات من حولهم دائمًا. وإذا نادى منادي الهمّة ودعا داعي الخدمة كانوا في الطليعة وانتصبوا في مقدمة الصفوف، وإذا كانت الأجرة والمكافأة انكفؤوا فكانوا في آخر الصفوف، مستغرقين في مراقبة صامتة عميقة. إنهم -بهذه الخصال السامية- صروحُ إخلاصٍ فريدة، ورموزُ تفانٍ نادرة. فإذا قدّر الحق تعالى أن يتكرم بمنحة خارقة، إنما يمنحها لهؤلاء الأبطال خالصةً، وإذا قَدّر نفخ الحياة في أمة، جعل أنفاس هؤلاء الأبطال لها صُورًا.

أبطال البعث هؤلاء، الذين نذروا أنفسهم لإحياء الإنسانية كافة، ستجدهم قد عقدوا العزمَ على توظيف ما منحهم الله من قابليات وطاقات حتى آخر قطرة لإقامة صروح "هدفهم الأسمى"، وحلّقوا بأبهى مشاعر البذل والتضحية والعطاء، وتحققوا بأنبل خصائص المسؤولية في حفظ ورعاية الأمانة التي حملوها على عواتقهم، وترقّبوا بأعمق مشاعر الاستسلام و"الصبر الفعال" ما سيجود به الحق تعالى من ألوان التقدير والتكريم.. وتلك -والله- سجايا روح بطولية نذرت نفسها للحق جل وعلا.

وبينما يقوم هؤلاء الأبطال بما يجب من مسؤوليات ليجتمع الشملُ ويستوي العُود ويحصل التمكينُ، يعلمون يقينًا أنه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(الرعد:٣٨)، فلا يضطربون ولا يرتبكون، بل يجيدون الترقب والانتظار سنين عديدة.

أجل، أحيانًا رغم أداء الواجبات والمسؤوليات كافة

hiramagazine.com

قد لا يتحقق الاستواء والنهوض، ولا يُمَكَّن فارسُ البعث من التعبير عن ذاته والقيام بمهمته وتنفيذ مشاريعه في المدى القريب، ولا تؤتي جهودُه ثمارَها المرتقبة في حينها. ويرجع ذلك أحيانًا إلى قصور الفارس -الذي ينشد بعثًا- في بلوغ المستوى المطلوب من النضج، وبالتالي إلى عجزه في توظيف طاقته كلها لإقامة صرح روحه.. ويرجع في أحيان أخرى إلى انشغاله بقضايا لا تعنيه مباشرة، ومن ثمة تعرّضِه للتشتت وضياع البوصلة، وانسياقه في سياق آخر من وتيرة الأحداث.

والحقّ أنه إذا كان انبعاثنا من جديد وعودتُنا إلى ذاتنا هبة ربانية -وهو كذلك بلا شك- فإنَّنا لن نقدرها قدرها لو جاءت قبل أن ننضج نضجًا يؤهّلنا لحملها، وستذهب أدراج الرياح دفعة واحدة، فنعرّض أنفسنا بذلك لألوان جديدة من الشقاء والحرمان يصعبُ تغييرها وتلافيها. زد على هذا أنّ المولى ﷻ قد أناطَ مِنحَه المادية والمعنوية بأن يوفّي الناسُ إرادتَهم حقَّها؛ ومن ثم فالتوجه الإلهي سوف يتأخر إلى أن تأتي اللحظة التي يستثمرون فيها كلّ الفرص والإمكانات التي يملكونها.

وفي هذا الباب مخاطر أخرى، منها أن روّاد هذا الطريق قد يتوهمون أحيانًا أن قدراتهم وطاقاتهم ومواهبهم الذاتية هي كل شيء، فيقعون في شِباك غفلة الثقة بها والركون إليها، أو يوشك أن يقعوا في مثل هذا المهوى. لذا لا يعطيهم الله كلّ ما يسألون، ولا يحقق لهم فورًا كل ما يرغبون، صونًا لهم من الانزلاق في مهاوي الشرك، فكأنه بهذا يكون قد حَوّل وجوهَهم من الشرك إلى التوحيد باقتيادٍ "جبريّ لطفيّ".

وأحيانًا تجد أن كل شيء قد وُضع في موضعه الصحيح، لكن أبطال الانبعاث لمّا يبلغوا بعدُ المستوى المطلوبَ في التوجه التام إلى الله، فيتركهم الحق ﷻ عُرضةً لألوان من الشدة والعدوان والتضييق، ولا يستجيب لجهودهم الانبعاثية، ولا يلبي رغباتهم كما يطلبون، ليتوجهوا إليه وقد اصطبغوا بحالة الاضطرار، شاكِين إليه مكابداتهم بإخلاص المضطرين. وأحيانًا أخرى، قد تزِلّ أعين هؤلاء الأبطال بشكل مّا إلى تطلعات دنيوية، ولا يستطيعون تصفية قلوبهم من أن تَشُوبها خواطر نيل المقام والمنصب والجاه والشهرة، ومن ثم لا يمكنهم استيفاء معايير التجرد الكامل و"الحسبيّة" الخالصة لوجه الله. فإلى أن تأتي اللحظة التي ينسلخ فيها هؤلاء جَذريًّا عن التفكير بغير ما يرضي الله، ويُخلِصوا التوجّه إليه سبحانه، لا يمكنهم حيازةُ نفخة البعث.

أضف إلى كل ما سبق نقطةً في غاية الأهمية، وهي ضرورة تمييز الجيّد من الرديء، وتمحيص الخبيث من الطيب في نظر الناس عامة، وضرورةُ انكشافِ الظَّالمين والمستبدين لشرائح المجتمع كافة.. وذلك أن فئات من المجتمع، لديها قابلية للانخداع والاستفزاز، لذلك قد يُلمَح عندها انحيازٌ إلى جبهة أهل الإلحاد، وأفعالٌ مسيئة إلى أبطال الانبعاث ومواقفُ سلبية ضدهم؛ ومردّ ذلك غالبًا إلى غموض في الصورة وخفاء في الحقيقة. ولهذا يمنح الله الناس جميعًا فرصة للتأمل ومهلة للتفكّر حتى يأتي يوم يتبين فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ويتضح فيه أين وقف أو سيقف الناس أجمعون خواصهم وعوامهم؛ وهذا يؤدي إلى تأخّر النتيجة المرتقبة بعض الشيء.

وأيًّا كان السبب، فالذي يقع على عاتقنا هو أن نقوم بمهمتنا وفق ما تقتضيه من أسس وواجبات، ووفق ما تقتضيه الحكمةُ، ثم نَكِل الباقي إلى الله.

ولْيعلم "فرسان البعث" جميعًا أنهم إذا استجابوا لدعوة الله ونداء رسوله الكريم ﷺ، فإنه لن يُسلِمهم لعَثَرات الطريق يسقطون في حُفَرها أو يتيهون في مجاهيلها، بل سيهديهم سبل الانبعاث سبحانه. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

hiramagazine.com

عمر البخاري*

إلهي

إلهي مدى الدهرِ فيك الرجا ... وفي كل أمر لك الملتجا
وإنك يا ربنا عالم ... بضعف يخالجنا في الحجا
وقد همنا أمر ذنب جنيـ ... ـنا فولى ضياء وحل الدجا
فصرنا ضعافًا أمام العدا ... فطال الظلام إذا ما سجى
وصرنا حمامًا بأرض الصقور ... لأنا نسينا إله النجا
فليست لنا ربنا عزة ... سوى أن جعلتَ لنا مخرجا
وها نحن نرجع يا ربنا ... إليك وندعوك أن تفرجا
ومن يدع رب الورى ضارعًا ... ويغد له دينه منهجا
ويلجا إليه ذليلاً له ... وبالقربات قد دُجِجَا
ويترك طريق الهوى دائمًا ... وماء غرائزه أثلجا:
يجبه إلى ما دعا ما اتقى ... طريق الأبالسة الأعوجا
فذاك الظلام أيا صحْبنا ... وهذا الضياء هنا وُهِجَا
فمن يبصر النور يجنح له ... ومن يك أعمى يُرِقْه الدجا

(*) شاعر مغربي.

أ.د. بركات محمد مراد*

كيف نربّي أبناءنا؟

إن الأطفال في كل أمة يشكلون نصف الحاضر وكل المستقبل. والأمة التي تستطيع أن تبني أطفالها وفق أهدافها وتطلعاتها، هي الأمة التي تستطيع أن تحمي وجودها وتتحكم في مستقبلها. ومن هنا ينصح علماء المستقبل بإعداد إنسان الغد، وتثقيفه ثقافة مستقبلية، وتطوير قدراته الإبداعية للتكيف مع عالم المستقبل سريع التغير، حتى تتناغم التغيرات في بنائه النفسي والعقلي مع التغيرات الخارجية، وإلا فإنه سوف يشعر بالاغتراب عن هذا العالم الجديد، حيث يقع فريسة لـ"صدمة المستقبل" على حد تعبير العالِم "توفلر".

ويُعتبر الطفل هذا الكائن البشري البريء، النواة الأولى للإنسانية ورأسمال البشرية، ولهذا حض الإسلام الكبار على تربيته وتعليمه وتنشئته تنشئة صالحة، ليكون مواطنًا صالحًا تستفيد منه أسرته ومجتمعه. وترجع المسؤولية الكبرى في ذلك إلى الآباء باعتبارهم أولَ من يفتح الطفلُ عليه عينيه، وتأتي المدرسة في المرتبة الثانية باعتبارها تجربة جديدة في حياة الصبي، ففيها يؤسس الطفل لعلاقاته الأولى ولتجاربه خارج البيت،

وتعد فترة التحاقه بالمدرسة للمرة الأولى من أهم الفترات في مساره الطفولي.

وإدراكًا لأهمية هذه المرحلة في حياة الطفل، فقد أولاها علماء النفس والتربية أهمية خاصة، لأنها مرحلة تأسيسية في بناء وتشكيل السمات الشخصية التي ستلازم الطفل طوال حياته. إن السنوات المبكرة من عمر الطفل، تمثل الفرصة الثمينة لتشكيل مكونات شخصيته وغرس بذور القدرات التي سيستمر في تكوينها طوال سنوات الدراسة، تلك الأسس التي ستصاحبه مدى الحياة. وإن النجاح الدراسي لا ينبئ به رصيد الطفل من المعارف، أو مقدرته المبكرة الناضجة على القراءة، بقدر ما تنبئ به المقاييس العاطفية والاجتماعية؛ تلك المقاييس المتمثلة في ثقته بنفسه، وأن يكون مهتمًّا، ويعرف طبيعة التصرفات المتوقعة، وكيف يكبح ميله إلى التصرف الخطأ، وأن يكون قادرًا على الترقب والانتظار والالتزام بالتوجيهات، واللجوء إلى مدرّسيه لمساعدته، والتعبير عن احتياجاته عندما يكون منسجمًا مع الأطفال الآخرين.

بصمات الطفولة في بناء الشخصية

تشكل طفولة الإنسان إحدى المحطات الرئيسة في مسيرة حياته، تاركةً عبر أحداثها وتجاربها وخبراتها وتفاعلاتها أعمق البصمات وأبعدها غورًا في بنيان شخصيته. تأسيسًا على ذلك يمكن احتساب تلك الخبرات والتفاعلات بمنزلة قطب الرحى في عملية تحديد سيرورة تطور تلك الشخصية، وترسّم مسارات تشكُّلها، فإما أن تجعل منه كائنًا اجتماعيًّا مستدخلاً معايير منظومته الثقافية متمثلاً أبجدياتها -الأمر الذي يتجسد عبر شخصية متكيفة مع المحيط متآلفة مع عناصره- وإما أن تغرس فيه بذور التنافر والتوتر والاختلال التي تتفاعل فيما بينها، مفضية إلى بناء شخصية مضطربة معقدة تتنازعها تيارات الانحراف والاعتلال.

في ضوء ذلك، ينبغي إيلاء تلك المرحلة أقصى درجات العناية والحماية، وإحاطة الأطفال خلالها بمناخات إيجابية صحية تضمن لهم النمو السليم المتكامل بمختلف أبعاده الجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية. إن الطفولة مرحلة نمو يتصف بها الأطفال بخصائص وعادات وتقاليد وميول، وأوجهِ نشاطٍ وأنماط سلوكٍ أخرى متميزة، ولهم في كل مجتمع مفردات لغوية متميزة، وعادات وقيم، وطرق خاصة في اللعب، وأساليب خاصة في التعبير عن أنفسهم وفي إشباع حاجاتهم، أي إن هناك ثقافة للأطفال يجب دائمًا تنميتها والعمل على ترقيتها.

تقدم المجتمع مرهون بثقافة أطفاله

إن الثقافة ضرورية للطفل، بل إن تقدم المجتمع مرهون بثقافة أطفاله، وبقدرتهم على اكتساب المعارف الجديدة، والقيم الأخلاقية والاجتماعية والتربوية الأصيلة. فالطفولة هي أساس الأمة وعليها يقوم بنيانها وازدهارها أو ضياعها، لهذا اهتمت الأمم بالأطفال واعتنت بهم، وجعلتهم همها الدائم وشغلها الشاغل كي تبني شخصية الطفل ثقافيًّا. كما أن شخصية الطفل لن تكون متزنة وتامة إلا إذا أولينا فكره وعقله من العناية مقدار ما نولي جسمه حتى ينشأ متكاملاً معافى متزنًا.

من هنا تأتي أهمية الرؤية التربوية النبوية؛ فقد سبقت الرعاية النبوية للأطفال كل المواثيق والأعراف الدولية، والنظريات التي تتحدث عن تربية الأطفال وحقوقهم ورعايتهم بقرون طويلة، ولا تزال التقاليد والآداب الراسخة التي أرساها النبي الكريم محمد ﷺ، هي الأجدى والأنفع في بناء الإنسان السليم نفسيًّا وعاطفيًّا. فقد اهتم الإسلام بحقوق الطفل، حتى حقه في أن يختار الأبُ زوجة ذات دين أمًّا صالحة تحسن رعاية الأولاد وحضانتهم، حتى إنه من حق الطفل أن يختار له أبوه اسمًا لا يتأذى أو يخجل منه إذا كبُر، وحقه أيضًا في الرعاية والتدليل والختان إذا كان ولدًا.

لكن هذه الرؤية الإسلامية لا تتعارض مع التطورات العصرية في التربية؛ ففي عالم الانفجار المعرفي والسكاني حيث تزداد سرعة التغير، فإن حقائق الماضي -غالبًا- لا تكفي لحل مشكلات الحاضر والمستقبل، مما يستلزم من عالمنا المعاصر أن يبحث عن مداخل جديدة للخبرة، حيث يصبح للتفكير الإبداعي أهمية اجتماعية في هذا العالم. فإذا أراد الإنسان أن يحيا

hiramagazine.com

بالصورة التي يرضاها لنفسه في عالم الغد، فعليه أن ينشئ أطفاله على أن يحققوا إمكاناتهم الإبداعية إلى أقصى درجة ممكنة.

إن عصرًا سمتُه الأساسية أنه عصر العلم والتكنولوجيا، يصبح الإبداع فيه مطلبًا لا مناص منه لمن أراد أن يجد لنفسه موقعًا متميزًا على خريطة عالم يتقدم من خلال وثباتٍ علمية كيفية تتجاوز كل قدرة على التنبؤ -والإبداع في صميمه تجاوز للمألوف- وهذا التجاوز لا يتحقق إلا من خلال مسايرة التيارات الكوكبية التي تنشغل في كثير من الأحيان بتعليم الطفل، باعتباره حجر الزاوية في المجتمع الكوكبي الجديد، حيث الأطفال فيه، هم قادة المستقبل في إحداث التغيير المطلوب، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق تعليمهم وتدريبهم على إنتاج المعرفة بدلاً من تدريبهم على أن يكونوا مستهلكين، وهو ما يقتضي إطلاقَ العنان لخيال أطفالنا، حيث إن "العلم ثمرة الخيال"؛ فعندما نسمح لأطفالنا بالدهشة التي هي جوهر الإبداع، ولا نقهر في داخلهم روح التساؤل، ولا نضع حدودًا لتعطشهم المعرفي، ولا نحبط داخلهم أي نزوع صوب البحث والتنقيب والاستكشاف... نكون قد بدأنا بوضع الجذور الجنينية لجيل بمقدوره أن يحدث التغيير الإبداعي المطلوب.

كما أنه لابد من تضمين ثقافة الطفل حقيقة العلم وقوة سلطان منهجه، وتوظيفه لخدمة الإنسانية العالمية التي تتجاوز الشعوب والأفراد والأمم، خاصة وأن العلم الذي نقل البشرية من طور إلى آخر، هو الذي يقوم حاليًا بإيجاد عالم جديد ولحظة تاريخية مختلفة كل الاختلاف عن كل ما هو قائم حتى الآن. لقد تحول العلم والثورات العلمية إلى قوة من القوى الكاسحة التي تصوغ الأحداث، وتشكل المستقبل، وتعيد ترتيب أولويات الدول والمجتمعات والأفراد. فمن يمتلك هذه القوة ويحسن توظيفها، يمتلك أساسًا مصيره ويتمكن من التأثير في الآخرين، بما في ذلك القدرة على إدارة العالم سياسيًّا واقتصاديًّا وتوجيهه ثقافيًّا. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

جمال في جمال

أرْضُنا بالزهر مفروشة، باللون منقوشة..
من يد الخالق طاهرةً أتتْ، نقيّةً قدمتْ...
متَّاعة للنظر، رهَّافة للحسِّ، مثيرة للشّعر..
للجنة مَـمَرّ، وسُلَّمٌ ومَعْبَر..!
ليتنا ما لوّثناها، ولا بآثامنا أثقلناها..!

* * *

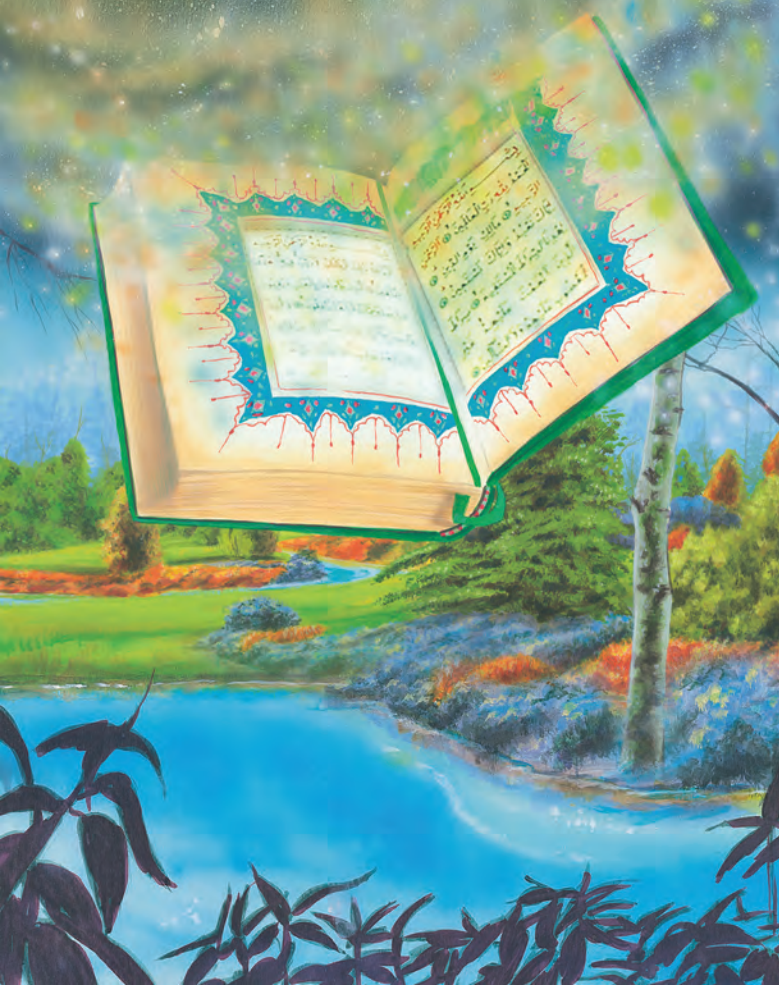

د. سمير بودينار*

دروس راهنة من أداء
فريضة التدبر

هل التفكير هو محض التعامل مع الظواهر الماثلة؟ وإن اتسع فمع الأفكار السابقة؟ وماذا كان أغنى رصيد الإنسان في إدراك معنى سعيه وكسبه، والعلم بهما معارف وعلوما إنسانية واجتماعية لو أنه اكتفى برصد ظاهر ما تراه عيناه؟ فاستغنى به عن تلك المحاولات الدؤوبة للغوص في الأعماق والتدبر في جوهر المعاني ولب القضايا والظواهر المتتابعة للحياة؟

لعل واحدة من أهم مشكلات "منهج" التفكير في عالم المسلمين اليوم، حيث استحكمت أزمات العقل والروح، منفعلة بمعضلات الاجتماع والحضارة، ومؤثرة في مسارهما، هي مشكلة "الظاهرية الجديدة" في النظر إلى الظواهر والأحداث والأفكار. إذ يكاد المشهد الراهن من تاريخ عالم المسلمين يُجمل في جملة واحدة هي: الانفعال بالصورة الأولية الذي يُفقد القدرة على النظر في الغايات والعواقب، والتدبر في المقاصد.

وإذا كان "فقه المآلات" في الأحكام الشرعية "متعلقًا

بتقدير الفقيه عند اجتهاده أو حكمه لمآلات الأحكام والأفعال التي هي محل حكمه وإفتائه"[1]، فكيف بالمتصدي للنظر في قضايا يحكم بها على عموم الناس ومصائر المجتمعات؟

لذلك يحسن البدء بالسؤال: ما التدبّر؟ وكيف يكون خُلُقًا يأمر به الوحي فيشير إليه القرآن؟ وكيف نمارس هذا الخلق إزاء واقعنا؟ هذا الذي ادلهمت فيه الخطوب وتزاحمت الأحداث بوتيرة تتأبى على المتابعة، فكيف بتدبر ما فيها وما إليه مآلها؟

التدبر معناه الإجمالي؛ النظر في عاقبة الأمر[2]، ولذلك يقولون عن المرء إذا أشكل عليه أمر، أي عظُم عليه فهمه إلى منتهاه وافتقد الأدوات اللازمة لإدراكه: "فلان لا يدري قِبال الأمر من دِباره"، ومن ذلك قول جرير:

ولا تتقون الشر حتى يصيبكم
ولا تعرفون الأمر إلا تدبرا

أيْ إلا بأثر رجعي كما يقول المصطلح القانوني الحديث.

والتدبر على صيغة "تفَعُّل" بمعنى أنه فعل متواصل؛ سيرورة من الجهد المبذول في النظر وتأمل الأمور ونظر في مآلاتها، وقد أوضح ابن القيم هذا المعنى حين قال: "تدبر الكلام أن يُنظَر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعل، كالتجرع والتفهم والتبين..". أي إنه فعل ملازم للإنسان في علاقات النظر والتفكير التي تربطه بالأفكار والأشياء. وقد أجمل بعض الباحثين المعاصرين معاني التدبر في قولهم: "التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"[3].

والخلاصة أن التدبر هو استفراغ الوسع في إدراك المعاني بإعمال الفهم والفكر بما يشمل المقصد والغاية من الأمر، من خلال تتبع المعنى إلى نهايته.

التدبر واجب كوني وضرورة واقعية

وإذا كان التدبر حاجة واقعية تفرضها مقتضيات الاجتماع الإنساني ومستقبله، فهو قبل ذلك فريضة ربانية متعلقة ببلوغ مرتبة التلقي للوحي بفقه مُراده، أي ارتقاء الإنسان

إذا كان التدبر حاجة واقعية تفرضها مقتضيات الاجتماع الإنساني ومستقبله، فهو قبل ذلك فريضة ربانية متعلقة ببلوغ مرتبة التلقي للوحي بفقه مُراده، أي ارتقاء الإنسان المخاطب إلى إدراك موقعه من الخطاب الإلهي بشكل مركب ومتكامل.

حراء

المخاطب إلى إدراك موقعه من الخطاب الإلهي بشكل مركب ومتكامل، شامل لأبعاد هذا الخطاب ومقاصده الكامنة في نفس الإنسان وواقعه. وهذا الذي يعبر عنه القرآن بالآفاق والأنفس باعتبارهما مساحة التجلي الأكمل للسنن الإلهية التي هي خطاب إلهي منظور.

واستحثاث التوجيه القرآني الإنسان على التدبر، ينصرف إلى الآيات بقصد الادّكار: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(ص:٢٩)، غير أن خطاب القرآن نفسه يحيل إلى الآيات المبثوثة في الآفاق والأنفس. ومن هنا كان التدبر واجبًا كونيًّا وضرورة واقعية تقتضيها أمانة الاستخلاف في الكون، التي تمتد بواجباتها إلى الحرص على مصير الإنسان مطلقًا؛ كما تقتضيها مسؤولية الانتماء إلى مجتمعات عالم المسلمين، التي تعطلت لديها القدرة على استئناف حياتها على مقتضى حقائقها الذاتية، وهو ما يشير إليه الماوردي بحديثه عن مسؤولية الإنسان عن "إقامة العمران على مقتضى القرآن".

ولعل العقل المسلم اليوم، أحوج ما يكون إلى إحياء فريضة التدبر وأداء مقتضياتها، بالنظر إلى اتساع آفاق النظر أمامه في عالمه، وتراكم الخبرات في واقعه، ولأن ما يعانيه من أزمات ومشكلات بقدر ما هي مثيرة لشجون الواقع وآلامه، فإنها موجّهة قدرة الاعتبار لديه إلى مواطن الاستفادة ومكامن الدروس، وما تشير إليه من سنن ماضية وقوانين ثابتة لا تعرف تغييرًا ولا تحويلاً... ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الفتح:٢٣).

من هنا يصير تدبر واقع الإنسان المسلم اليوم، جوهر أداء هذه الأمانة الجسيمة في إدراكِ السنن والتنبيهِ إليها، قيامًا بواجب التعاون على انعتاق مجتمعاتنا من أزماتها،

hiramagazine.com

والسير نحو استردادها مناطَ خيريَّتها في مجموعها كأمة شاهدة.

ولا شك أن عناوين الأزمة اليوم متعددة، إذ انضاف إلى ما كابدناه طويلاً من الاستتباع والتجزئة والانقياد للغير، مدلهمّات الخطب الداخلي في مجتمعاتنا، مع التشظّي الذي مس المرجعية بحسب اتجاهات الواقع وأحداثه، بدل أن تكون لحمة الجماعة المعنوية ومصدر التوجيه للمجتمع في أوبته إلى رشده. وتعددت مصادر النداء إلى طريق الخروج من المحنة بلا نظر في مآلاته، ولا استخلاص لدروس المسار السابقة على ذات الطريق التي تعددت طرائق قددًا.

إلا أن فريضة التدبر إذ تظل معتصمة بالأصل المَعلَم للاهتداء، وهو الوحي، فإنها تستحيل سعيًا قاصدًا إلى إدراك معانيه في ضوء مسيرة حياة الإنسان المسلم اليوم، وتمَثُّلِ أحكام الوحي في واقع المجتمع، مع استصحاب أزمات هذا الواقع كرصيد متراكم من الدروس والخبرات، وتدبر مآلاتها على هدي السنن الماضية، آيات للسائرين.

إحياء فريضة التدبر وثمراته

أما ثمرات هذا التدبر في واقع كالذي كابدنا فصوله -ولا نزال- فكثيرة جدًّا، وهي تبين مقدار الحاجة إلى إحياء هذه الفريضة وعِظَم الدروس المستفادة من هذا الإحياء، وإن محاولة أولية متواضعة للمضي في هذا السعي تَمُدّنا بعدد من تلك الثمرات، تُهديها الظروف الماثلة إلى المشتغلين بإصلاح الشأن العام خاصة.

ولعل أول تلك الدروس، أنّ التعامل مع الواقع ينبغي أن يكون مع معطياته وحقائقه كما هي بالفعل، مستخلصة من تأمل دقيق فيه ودراسة مستوعبة له، لا الإصرارَ على التعامل مع هذا الواقع كما نتصوره من موقعنا وخلالِ ذاتيتنا.

إن جَسْرَ الهوّة بين هذين المستويين لإدراك الواقع (الحقيقة والتصور الذاتي) أمر حاسم في نجاح مسعى التغيير، وهذه مهمة تقتضي تحولاً حقيقيًّا في مستويي مناهج التعامل معه ووسائله؛ إعادة النظر في منهج التلقي عن الكون كما يتجلى علينا في حركته وقوانينه، وقراءة العالم من حولنا في موازينه وأحداثه، وإدراك طبيعة الفاعلين من حولنا في أحجامهم الحقيقية ومدى قدراتهم، وتفاعل العلاقات بينهم، والخلاصات المركبة لهذا الواقع الماثل المتسمة بدقة التفاصيل المؤثرة وسرعة تحولها.

بكلمة، ينبغي للمواقف دقَّت أو عَظُمَت أن تكون نتيجة تدبر في الموقف الماثل وموازينه، وبالتالي سببًا في توجيهه لا نتيجة لإكراهاته وظروفه؛ أليس القصد شرطًا في السعي؟ ولا قصد إلا بوعي محكم بتفاصيل المرحلة وظروف المسير، أليست قواعد فقه المآلات تعلمنا "استقراء الجزئيات لصياغة الكليات"[٤].

الدرس الثاني هو أن التغيير الأبقى هو الأعمق جذورًا في الواقع: ظروفه الحاكمة ومعطياته المؤثرة وليس الأسرع. فواقعنا تدهور عبر إرادات فاعلة وعمل دؤوب وظروف معقدة امتدت قرونًا؛ يحتاج معه إلى تغيير هادئ في مقاصد عمرانه، ومحددات أهدافه، وقيمه المعرفية وأخلاقه، وآليات اشتغاله، ودوافع حركته... وأي تغيير لا يستهدف هذه الأبعاد فمآله إلى الانتكاس وإن بدت آثاره الإيجابية في الظاهر سريعًا، أو حرّكت صورته فينا مشاعر الأمل وعواطف الاستبشار والحماس.

ولعل من لازم هذا القول أن تحولات هائلة تطرأ على واقعنا باضطراد، تمس العلاقات والمؤسسات والأدوار وأدوات الفعل ووسائل التأثير، وما لم نراجع الأدوات التي نعتمدها، ووسائلنا التي نستخدمها قاصدين التأثير بها في ذلك الواقع، فإنها ستصير أدوات معطلة لا إمكانية فعلٍ لديها، وسنظل نتّهم الآخرين أو الواقع بالاستعصاء، غافلين عن تجاوزه لقدراتنا نحن في إبداع ما يناسبه من وسائل، وتطوير قدراتنا المتنوعة على التعامل مع تحولاته.

أما الدرس الثالث المرتبط بسابقه، فهو أن الواقع الراهن مؤلم صعب لا يتحمل مبادرات غير محسوبة، ولا ذات آثار جانبية تزيد من آلامه، فهو أحوج في مواصفات القائمين بمهام التغيير والإصلاح، المتصدين

hiramagazine.com

لأعباء الشأن العام الآن، إلى دقة الطبيب منه إلى قوة البَنَّاء على أهميتها.

لقد أثبتت خبرة واقعنا الراهن ألا نُخَبَ مؤتمنة على مهام ريادة المجتمعات وتوجيه طاقاتها وصياغة وعيها وقيادة مسارها، ما لم تنشأ على معاني الانتماء والحرص على مجتمعاتها ورعايتها وحفظ مصالحها حقًّا، وتتمثّل قيمَ الاهتمام بمآل هذه المجتمعات اهتمامها بشأنها الحاضر. ولذلك فإنه من الأهمية بمكان، النظر في مقاصد التصرفات ومآلات المواقف وتأثيراتها متكاملة على مصير المجتمع ومسار الأمة، وفق ما سماه بعض العلماء المعاصرين "التدبر الإستراتيجي"[٥].

ومن مقتضيات هذا التدبر أولوية رعاية نخب جديدة من شباب هذه المجتمعات مكمن طاقة الريادة الحقيقية، فذلك أهم بكثير من إدانة الواقع ومساراته، واتهام النُّخَب الحالية بالتقصير في أمانة القيادة، وصدق الحرص على تحمل مسؤولياتها تجاه مجتمعها... إن الرائد لا يكذب أهله.

الدرس الرابع مؤسس على خطاب القرآن الذي جاء لبناء الإنسان قبل العمران، وإقامة الأمة قبل الدولة. ألم تقم دولة النبي ﷺ بداية في نفوس من استقبلوه في المدينة سعداء منشدين "طلع البدر علينا" في وعيهم الجمعي أولاً؟ فصياغة المجتمع إذن غاية مقدمة على امتلاك أدوات السلطة، وإصلاح الشأن العام يبدأ حتمًا بإصلاح الشأن الخاص؛ شأن الإنسان وبناؤه على أساس منظومة قيم بحضارية شاملة بداية البدايات.

لقد أصبحت الإشارات إلى محدودية دور الدولة في عصر العولمة، وتعاظم أدوار المجتمع المدني محليًّا وعالميًّا، خطابًا متواترًا يقتضي استيعابه بالدراسة المنهجية المتكاملة، وإدراك مقتضياته الواقعية في العمل الإصلاحي للمجتمعات. فالمفهوم الأحدث للسياسة باعتبارها القدرة على التأثير في المجال العام لا مجرد التنافس على تسنم زمام السلطة، ومفهوم "القوى الناعمة" ذو الأهمية الحاسمة في التأثير والتأثر بين الأمم داخل حقل العلاقات الدولية اليوم... كلها تؤكد أولوية النظر في تغيير مفاهيم وأولويات العمل العام. فلا إصلاح إلا شموليًّا، في المكان والمجال، وشرطه إصلاح الإنسان الذي هو مفتاح التغيير في كل مكان ومجال. وكما أن الوحي جاء شاملاً لأبعاد حياة الإنسان كلها ووحدات المجتمع جميعها، فإن بعثه في حياة الناس ينبغي أن يكون كذلك في وحدات الحياة كافة، بالتوازي والتلطف.

وفي دائرة هذا الإصلاح يقع الدرس الخامس، وهو أنه لم يعد ثمة -بصدد إرادات الإصلاح- مجال لتصنيف بين الناس والمجتمعات والأقطار في عالمنا، سواء على أساس الدين أو العرق أو اللغة أو الهوية المذهبية أو الثقافية أو غيرها... إذ الواجب هو النظر إلى الإنسانية جميعًا مجالاً واحدًا للسعي إلى الخير، ودارًا كبيرة لخدمة الخلق تحقيقًا لمراد الحق؛ رحمة للعالمين.

إن الإنسانية تركب اليوم قاربًا واحدًا يمضي بها جميعًا إما إلى النجاة وإما إلى الهلاك، فقد اتحدت أزماتها وتقاربت المسافات بين أهلها. كما تعاظمت علامات تدخّل الخارج في شأن الداخل بشكل غير مسبوق، وفي رسم الأهداف التي تحكمه، والخطط التي تحركه. فلا عمران إذن، حقيقيًّا وباقيًا في مكان إلا بأن يكون في كل مكان من عالمنا.

هذه بعض أمثلة أولية محدودة على دروس مستفادة من التدبر في واقعنا مسارًا ومآلاً، ذلك الذي ينبغي أن تبذل في سبيله الجهود وتشيد له المؤسسات، ويؤهل له الإنسان، خاصة منه من يتصدى لأعباء الشأن العام وإصلاحه، كل ذلك قيامًا ببعض واجب هذه "الفريضة الغائبة". ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

الهوامش

(١) الموافقات، للشاطبي، ١٩٤/٤.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة د.ب.ر.

(٣) راجع: المعين في تدبر الكتاب المبين، لسعد بن أحمد حنتوس، ص:٦.

(٤) الموافقات، للشاطبي، ٣٦/١.

(٥) راجع في ذلك ما كتبه عالم السياسة المصري الكبير الدكتور حامد ربيع.

نيروز بن زقوطة*

لماذا توجد الكمأة في الصحراء؟

تمثل الأراضي الصحراوية بيئة خاصة، ففي ظروف الجفاف وفي وطأة الحرارة المرتفعة، تأخذ هذه البيئة لونًا فريدًا يبدو قاسيًا، لكنه في الحقيقة نظام معيّن من الأنظمة البيئية المختلفة التي أوجدها الله تعالى في هذا الكون. وفي هذه البيئة العجيبة توجد نباتات عديدة ذكرها القرآن الكريم وأشارت إليها السنة النبوية المطهرة، وهذا لا يكون إلا لأهميتها الكبيرة وفوائدها الجمّة. فنجد مثلاً التمور، والسدر، والآراك، والأثل، والصبّار، والكمأة التي يسميها أهل الصحراء "لحم الأرض" لطعمها الفريد وغناها بالبروتينات.

ماهية الكمأة

هي فطريات جذرية (Mycorhize) تنتمي إلى نوعي "Terfezia" و"Tirmania"، تنمو تحت الأرض مع جذور نباتات أخرى كنبات القصيص (Helianthemum Lippii)، الإجرد (Helianthemum Ledifolium)، وجنس آخر يُعرف بـ"Helianthemum Ellipticum". كما أن الكمأة تُعرف أيضًا بـ"المنّ"، ونبات الرعد، والفقع، وعيش الغراب، أما في الجزائر والمغرب العربي فتسمى بـ"الترفاس".

جاء في لسان العرب أن "الكَمْء"؛ نبات يُنَقِّضُ الأرض فيخرج كما يَخرج الفُطْرُ. وكَمَأَ الرجلُ تشققت رجلاه. و"الكمي" يعني التخفي وعدم الظهور. والكمأة لا تظهر حتى تتشقق الأرض عنها، وإنها تكون في الأرض من غير زرع أو سقي. سميت "كمأة" لاستتارها، فهي مخفية تحت الأرض لا ورق لها ولا ساق. توجد في الربيع وتعتبر من أطعمة أهل البوادي، وتكثر بأرض العرب، وأجودها ما كانت أرضها رملية قليلة

hiramagazine.com

الماء. وتكثر الكمأة عند مجاري الأنهار في السنوات التي تتمتع بمناخ جيد، حيث توجد كميّات متنوعة من النباتات العائلة. هذا وإن المنطقة الممتدة من شمال إفريقيا إلى حدود آسيا الوسطى تعدّ محيطًا طبيعيًّا لانتشار الكمأة.

الكمأة في الكتاب والسنة

لقد ذكر الله تعالى "المَنَّ" في مواضع ثلاثة من القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾(البقرة:٥٧)، وقال أيضًا: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾(الأعراف:١٦٠)، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾(طه:٨٠).

أما في الحديث النبوي الشريف، ففي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ أن أصحاب النبي ﷺ تذاكروا "الكمأة" فقالوا: هي جدري الأرض وما نرى أكلها يصلح، وعندما بلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: "الكمأة من المَنّ وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهي شفاء من السّم".

وأخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح إلى قتادة قال: حدثتُ أن أبا هريرة قال: أخذت ثلاث أكمؤ أو خمسًا أو سبعًا فعصرتهن فجعلت ماءهن في قارورة فكحلت به جارية لي فبرئتْ.

وذكر الزرقاني أن "المتوكل" أميرَ المؤمنين العباسي، رمد، ولم يزدد استعماله الأدوية إلا رمدًا، فطلب من الإمام أحمد بن حنبل إن كان يعرف حديثًا في ذلك، فذكر له أن النبي ﷺ قال: "الكَمْأَةُ من المَنّ وماؤها شفاء للعين"، فأرسل "المتوكل" إلى طبيبه "يوحنا بن ماسويه" المسيحي، وطلب منه أن يستخرج له ماء الكمأة، فأخذ الكمأة فقشرها ثم سلقها فأنضجت أدنى النضج، ثم شقّها وأخرج ماءها بالميل، فكحل به عين "المتوكل" فبرئت في الدفعة الثانية، فعجب ابن ماسويه وقال: "أشهد أن صاحبكم كان حكيمًا". وقد اختلف العلماء في حقيقة ماء الكمأة وكيفية استخراجه.

الفوائد الطبية والغذائية للكمأة

أظهرت عديد الدراسات الكيميائية أن الكمأة تحتوي على البروتينات والأحماض الأمينية الأساسية بنسبة

٢٠-٢٧٪، بحيث تفوق أغلب النباتات والفطريات الأخرى بـ٣-٧,٥٪ من الدهون، والستيرولات ٧-١٣٪ من الألياف الغذائية، ٢-٥٪ من حمض الأسكوربيك (Vitamine C)، والمعادن (K, P, Fe, Cu, Zn, Mn, Na, Ca) والسكريات كالجلوكوز، والفركتوز والمانيتول بنسبة ٦٠٪.، كما أن ذوق الكمأة الخاص هو نتيجة تواجد مكونات أخرى وهي الألدهيدات، والكحولات، والكيتونات، والأحماض العضوية، والمركبات الكبريتية. لكن نسبة تواجدها تختلف من نوع لآخر بحسب المنطقة والتربة ومكوناتها. ونظرًا لغناها بهذه المواد الطبيعية فهي تعتبر غذاءً غنيًّا متكاملاً.

تعتبر الخاصية المضادة للبكتيريا، من أكثر الدراسات التي تمت على مستخلصات الكمأة، وكانت البكتيريا المستعملة من عدة أجناس مثل "Staphylococcus Aureus" و"Pseudomonas aeruginosa"، هي التي تتسبب في أمراض العيون الشائعة. كما تمت دراسات أخرى على بكتيريا "Chlamydia Trachomatis" والتي تتسبب في مرض "التراخوما" المعروف بـ"الحثر" أو "الرمد الحبيبي"، وهو مرض خطير يصيب العين ويؤدي غالبًا إلى العمى. وأما هذا المرض فينتشر عن طريق ذُبابتي "Musca Sorbens" و"Musca domestica"، إذ تحط على وجه الشخص السليم وخصوصًا على وجه الرُضَّع والأطفال فتتسبب بذلك بانتقال المرض من شخص إلى آخر، ويزداد هذا المرض عند تكاثر الذباب في فترات الحرارة. إنه التهاب مزمن مُعدٍ يقاسي منه معظم سكان منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط وبقاع

hiramagazine.com

أخرى من العالم، وقد كان الرمد الحُبَيبي مسؤولاً تمامًا بمضاعفاته عن أكثر من ربع حالات العمى في منطقة انتشاره قبل ظهور المضادات الحيوية خصوصًا في الأحياء الفقيرة. وقد أثبتت الدراسات المخبرية فاعلية الكمأة ضد هذه البكتيريا، ويرجع ذلك خاصة لوجود بروتينات ذات تأثير مضاد للبكتيريا.

أما الخاصية المضادة للأكسدة فهي قوية، وأظهرت التجارب أنها تتناقص مع التعليب والتجميد، وتبين أن المركبات المسؤولة عنها هي الفيتامين "أ" والفيتامين "ج"، ومتعددات الفينول "الأنثوسيانين"، "الفلافونويدات الكلية"، "الكاروتينات الكلية"، "الفينولات الحرة والمؤسترة".

إن الكمأة تعتبر نعمة من نِعَم الله القدير القائل في محكم التنزيل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾(لقمان:٢٠)، وتبقى الكمأة متخفية في باطن الأرض تنتظر من يخرجها لتكون له غذاءً أو دواءً شافيًا.

إن الكمأة إذن، غذاء كما أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم، لاحتوائها على أهم العناصر المغذية، وهي البروتينات والأحماض الأمينية، يستعملها أهل البوادي والبدو الرُّحَّل في تغذيتهم كبديل عن اللحوم، ويمكن الاحتفاظ بها بعد تجفيفها أو تمليحها لكي تستهلك في فصول أخرى من السنة.

وهي شفاء للعين كما وضحه رسول الله ﷺ، لتأثيرها المضاد للبكتيريا المسببة لأمراض العيون. وما تواجدها في الصحراء وفي فترة بداية الربيع، إلا لحكمة منه

تعالى. فمرض "التراخوما" ينتشر في منطقة انتشار الكمأة من شمال إفريقيا إلى الشرق الأوسط، والذبابة التي تنقله تتكاثر وتنشط في فترات الحرارة التي تبدأ مع فصل الربيع، خاصة في المناطق الصحراوية، كما أن فصل الربيع تبدأ معه العواصف الرملية التي يمكن أن تتسبب في نقل بعض الجراثيم للعين أو تتسبب في التهابات حساسية للعين (Conjonctivite Allergique)، وبهذا جعل الله مكان وزمان تواجد العلاج موافقًا لمكان وزمان تواجد المرض.

وللكمأة فوائد أخرى باعتبارها فطريات جذرية، فهي تحافظ على التوازن البيئي الصحراوي فتمنع تحرك الرمال بإفراز مواد لزجة تساعد في تجميع حبيبات الرمل حول الجذور مما يؤدي إلى تثبيت الرمال حولها. وهذه طريقة لمقاومة التصحر، وتمد النباتات العائلة بما تحتاجه من العناصر المعدنية كالحديد والنحاس والزنك، وتقوم بسحب الماء الموجود خارج منطقة الجذور للنبات المضيف، فتقاوم هذه الأخيرة الظروف القاسية من جفاف وملوحة وتنمو أكثر لتكون حاجزًا لتحرُّك الرمال أو كلأ لحيوانات المنطقة. كما تعتبر تجارة الكمأة ذات أهمية اقتصادية كبيرة لسكان الريف والبوادي يمكن معها تقليص حجم البطالة.

وهكذا هي نِعَم الله الرحيم بعباده لا تحصى، لا نعلم إلا القليل عنها، قال تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٤). ■

(*) معهد الكيمياء، كلية العلوم، جامعة المسيلة / الجزائر.

hiramagazine.com

أ.د. عماد الدين خليل*

الإنسان قوة واعية، وذهن فاعل، فقيمته مرتبطة بمقدار تشبُّعه علمًا وفهمًا وإدراكًا.. أما مَن يستهويه علم الشائعات والانكباب على قيل وقال وكثرة السؤال، فذاك قيمته بقيمة ما عنده من هذه الترهات.

الموازين

الدور المركزي للأتراك في الأمة الإسلامية

منذ اللحظات الأولى لدعوة الإسلام جاءت التأكيدات القرآنية على عالمية هذا الدين وعدم اقتصاره على العرب: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(سبأ:٢٨).

لقد فتح الرسول ﷺ وصحابتُه الكرام ﷺ صدورَهم لكل المنتمين للدين الجديد، وتبوّأ رجالٌ من أمثال "صهيب الرومي" و"سلمان الفارسي" و"بلال الحبشي" وغيرهم من غير العرب، مواقع متقدمة في حركة الدعوة الإسلامية، ولقوا كل ترحيب وتكريم.

ولمّا قامت حركة الفتوحات وانتشر المسلمون في الأرض وأصبحت الدولة الإسلامية دولة عالمية، وجد العرب الفاتحون أنفسهم يتعايشون مع شعوب شتى انتمى الكثير منها إلى الإسلام، وظلت شرائح أخرى على أديانها تمارس حقوقها الدينية والمدنية بحرية تامة.

فها نحن ذا إزاء ما يمكن تسميته بـ"الأممية الإسلامية" التي أكدها القرآن الكريم في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)؛ أي ليتميز بعضكم عن بعض، وفي الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩).

أممية تعترف بالتمايز بين الجماعات والشعوب والأمم، ولكنها تسعى لأن تجمعها في الوقت نفسه على صعيد الإنسانية: "كلّكم لآدم وآدم من تراب". وهي محاولة تختلف في أساسها عن الأممية الشيوعية التي سعت -ابتداءً وبحكم قوانين التنظير الصارمة- إلى إلغاء التنوّع ومصادرته، وإلى تحقيق وحدة قسرية ما لبثت أنْ تأكد زيفُها وعدم القدرة على تنفيذها تاريخيًّا بمجرد إلقاء نظرة على خارطة الاتحاد السوفياتي (المنحلّ) حتى قبل حركة "البرسترويكا"، والرفض المتصاعد الذي جوبهت به الأممية الشيوعية من قبل حشود الأقوام والشعوب التي تنتمي إلى بيئات ثقافية متنوعة. كما حدثتنا الخبيرة الفرنسية في شؤون الاتحاد السوفياتي في ثمانينيات القرن الماضي "هيلين كارير دانكوس" في كتابها "القوميات والدولة السوفياتية"، الأمر الذي كان أحد الأسباب الرئيسية لانهيار التجربة السوفياتية.

إننا بمقارنة هذا بما شهده التاريخ الإسلامي من تبلور كيانات ثقافية إقليمية متغايرة في إطار وحدة الثقافة الإسلامية وثوابتها وأسسها وأهدافها المشتركة، يتبين مدى مصداقية المعالجة الإسلامية لهذه الثنائية (أي ثنائية الوحدة والتنوع) كواحدة من حشود الثنائيات التي عولجت بنفس القدر من الواقعية في الرؤية والمرونة في العمل.

لقد شهد عالم الإسلام أنشطة معرفية متميزة، وثقافاتٍ شتى على مستوى الأعراق التي صاغتها عربيةٌ وتركية وفارسية وكُردية وهندية وصينية ومغولية وزنجية وإسبانية... كما شهدت أنماطًا ثقافية على مستوى البيئات والأقاليم؛ عراقية وشامية ومصرية ومغربية وتركستانية وصينية وهندية وإفريقية وأوربية وشرقية وتركية وإسبانية وبحر متوسطية... وكانت كل جماعة ثقافية تمارس نشاطها المعرفي بحرية، وتعبّر من خلاله عن خصائصها وتؤكد ذاتها، ولكن في إطار الأسس والثوابت الإسلامية بدءًا من قضية اللغة والأدب، وانتهاء بالعادات والتقاليد، مرورًا بصيغ النشاط الفكري والثقافي بأنماطه المختلفة، ولم يقل أحدٌ أن هذا خروج عن مطالب الإسلام التوحيدية، كما أن أحدًا لم يسعَ إلى مصادرة حرية التغاير هذه. وفي المقابل فإن أيًّا من هذه المتغيرات، لم تتحول -إلا في حالات شاذة- إلى أداة مضادة لهدم التوجهات الوحدوية الأساسية لهذا الدين.

إننا إذا استعرضنا في الذهن منظومة الكيانات السياسية في التاريخ الإسلامي، أو ما أطلق عليه اسم "الدويلات الإسلامية" التي تجاوزت في عددها العشرات، فإننا سنجد من وراء التنوّع السياسي أو بموازاته تغايرًا في التعبير الثقافي ولكن في دائرة الإسلام، وسنجد كذلك حماسًا لم يفتر عما كان عليه أيام وحدة الدولة الإسلامية، لتحقيق المزيد من المكاسب لهذا الدين وعالمه، نشرًا للإسلام في بيئات جديدة، وجهادًا للكفار فيما وراء الحدود، وتوسيعًا للسلطة الإسلامية فيما وراء الثغور، وتعزيزًا وإغناءً للقيم الحضارية الإسلامية التي تلتقي على المبدأ الواحد والمصير المشترك، أي باختصار وكما أطلق عليها المستشرق المعروف "فون غرونباوم" في كتاب أشرف على تحريره بالعنوان نفسه "حضارة الوحدة والتنوّع".

كل الشعوب التي انضوت تحت الدول الإسلامية مُنحت فرصتَها للتحقق والتعبير عن الذات، وبقي المجال مفتوحًا حتى للعبيد والمماليك كي يشكلوا دولاً، ولغير المسلمين أن يتمتعوا بحقوقهم الدينية والمدنية كاملة وأن يتبوّؤا مواقع متقدمة في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية. لقد انطوى عالم الإسلام على كل أشكال التعددية العرقية والدينية واللونية والمذهبية والطبقية.

الأتراك احتلوا مساحة كبيرة في خارطة "الأمميّة الإسلامية"، ومارسوا دورًا متشعبًا، وقدموا إنجازات كبيرة على المستويين السياسي والدعوي، وكان عالم التركستان في أواسط آسيا مَنجمًا خصبًا من الطاقات البشرية الخام التي كانت تغذّي عالم الإسلام بطاقات

hiramagazine.com

إسلامية شابة بين الحين والحين، وفي صيغة موجات متعاقبة كانت تنتمي للإسلام بإخلاص بالغ، وتبدأ مشاركتها الفاعلة في مصائره الدينية والسياسية والحضارية. ولسوف نقف باختصار وبرؤية طائرٍ "View of Bird"، عند اثنتين من هذه الهجرات: السلاجقة والقوى التركية التي جاءت بمعيّتهم، والعثمانيون، للتأشير على المعطيات الأساسية التي قدموها للأمة الإسلامية.

مضى السلاجقة بإستراتيجيتهم العالمية إلى العمق الأناضولي، وتمكّن سلطانهم الثاني "أَلْبْ أَرْسْلاَن" (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٣٣-١٠٧٢م) من تدمير البنية العسكرية للبيزنطيين في معركة "مَلاذْكِرْد" عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، واضطرارهم إلى الدفاع بعد قرون متطاولة من الهجوم على الأرض الإسلامية، ثم ما لبث العثمانيون أن جاؤوا لكي يُتمّوا المهمّة ويخرجوا البيزنطيين من التاريخ في أعقاب فتح القسطنطينية على يد القائد العثماني الشاب السلطان محمد الفاتح (٨٥٧هـ/١٤٥٣م).

هذا إلى أن السلاجقة تَولّوا أكبر مقاومة للغزاة الصليبيين في الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين، بعد أن تلقوا صدمتهم المبكرة في الحملة الصليبية الأولى (٤٨٩-٥٤٣هـ/١٠٩٥-١٠٩٩م) على ديار الإسلام. ولقد تمثل الردّ السلجوقي والقوى التركية الإسلامية التي جاءت بمعية السلاجقة، بقيادات ثلاث مارست دورًا خطيرًا، ليس فقط في وقف الزحف الصليبي وإنما في تدمير بنيته العسكرية والسياسية، وفتح الطريق لـ"الناصر صلاح الدين" وللمماليك من بعده للإجهاز عليهم وتحرير البلاد منهم.

فأما أولى تلك القيادات فتمثلت بوُلاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م)، حيث برز رجال من أمثال "قوّام الدولة كربوقا" و"شمس الدولة جكرمش" و"مودود بن ألتون تكين" و"جيوش بك" و"آق سنقر البرسقي"، ألحقوا بالصليبيين هزائم قاسية في الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين.

والقيادة الأخرى تمثلت بـ"أراتقة ديار بكر" الذين قدِموا مع السلاجقة واستقرّوا في الإقليم المذكور،

كل الشعوب التي انضوت تحت الدول الإسلامية مُنحت فرصتَها للتحقق والتعبير عن الذات، وبقي المجال مفتوحًا حتى للعبيد والمماليك كي يشكلوا دولاً، ولغير المسلمين أن يتمتعوا بحقوقهم الدينية والمدنية كاملة.

حراء

حيث شكلوا شبكة من الإمارات في "ماردين"، و"ديار بكر"، و"حصن كيفا" ظلت تحكم هناك لأكثر من ثلاثة قرون (٤٦٥-٨١٢هـ/١٠٧٢-١٤٠٩م)، ومارس مؤسسوها الأوائل "سقمان بن أرتق" و"إيلْغازي" و"بلك بن بهرام" دورًا خطيرًا في مقاومة الغزاة الصليبيين وإلحاق الخسائر المتتالية بهم.

وأما القيادة الثالثة فتمثلت بأتابكة الموصل وحلب الأتراك "عماد الدين زنكي" (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٧هـ) وابنه "نور الدين محمود" (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٢٧-١١٧٣م)، وقد استطاع أولهما أن يوحد الإمارات الإسلامية الممزقة في المنطقة ويلحق بالصليبيين هزائم قاسية، كما تمكّن ابنه "نور الدين محمود" الذي اتخذ حلب قاعدة له، أن يواصل الطريق وأن يدخل دمشق ويوحّد الشام ومصر، ويُسقط بواسطة ضابطه الشاب "الناصر صلاح الدين" الخلافةَ الفاطمية، التي فقدت دورها التاريخي ومدت أيديها للصليبيين الغزاة تعرض عليهم اقتسام الشام وفلسطين بين الطرفين.

والذي مكّن "نور الدين محمود" من تحقيق هذه الإنجازات الكبرى وتمهيد الطريق لتحرير القدس، أنه أنشأ دولة إسلامية تحكم بشرع الله في كل مفاصلها وحلقاتها، وكان هو شخصيًّا النموذج الحيّ للقيادة الإسلامية الصالحة التي تذكرنا بعصر الراشدين والتي تجيء مصداقًا تاريخيًّا للآية الكريمة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(النور:٥٥)، ولذا عُدّ "نور الدين" بإجماع المؤرخين، الخليفة الراشد السادس بعد الخليفة الأموي

hiramagazine.com

عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م).

هذا إلى أن أتراك ديار بكر من الأراتقة تلقوا بشجاعة فائقة الصدمة المغولية في موجتيها الأولى والثانية، وأبلوا بلاءً حسنًا في مقاومتها.

على مستوى الداخل الإسلامي قدّم السلاجقة الأوائل للأمة الإسلامية خدمات لا تقل أهمية، فقد أنقذوا العراق من عبث البويهيين وتسلطهم على مقدرات الخلافة العباسية (٥٤٧هـ)، وتمكّن سلطانهم الأول "طغرل بك" من سحق محاولة البساسيري الانقلابية عام (٤٥٠هـ) والتي استهدفت تسليم مقدرات الخلافة العباسية للفاطميين في مصر، وأنشؤوا شبكة من المدارس الفقهية في مدى عالم الإسلام لتعميق الوعي بمفاهيم هذا الدين وحماية ثوابته العقدية والتشريعية من التحوير والتزييف، وقام مهندسهم الفكري الوزير "نظام الملك" -الذي اغتيل على أيدي الباطنية- بالإشراف على بناء هذه الشبكة، ووضع كتابه المعروف "سياسة نامة" برنامج عمل في مجال الفكر السياسي. هذا فضلاً عن قيام السلاجقة بتأسيس جملة من الإمارات والممالك، كان لها -كما ذكرنا- الدور الكبير في مصائر ومقدرات الأمة الإسلامية.

ولابد هنا من التأشير على الخطوط العريضة للدور المركزي الذي تبّوأه العثمانيون ولمكانتهم القيادية لمدى قرون عديدة.

فالعثمانيون هم الذين فتحوا القسطنطينية (١٤٥٣م) وحققوا نبوءة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، وهم الذين أخرجوا البيزنطيين من التاريخ بعد أن كان هؤلاء شوكة تحزّ جنب الأمة الإسلامية وكيانها السياسي لمدى قرون متطاولة. والعثمانيون هم الذين نقلوا الإسلام إلى الجانب الأوربي من العالم القديم، وأَوْغلوا في فتوحاتهم حتى اجتازوا بولندة شمالاً، ودقوا أبواب فيينا غربًا، ونشروا الإسلام في مساحات شاسعة من أوربا الشرقية. وهم الذين أعدوا العدة في وقت مبكر لمجابهة تحديات حركة الاسترداد الإسباني (الريكونكويستا) ضد الوجود الإسلامي في الأندلس، وإنقاذ ما تبقى للمسلمين هناك، ولكن التحديات والمشاكل التي جابهتهم صدّتهم عن تحقيق هدفهم الكبير هذا. وهم الذين امتصوا زخم الهجمة المغولية الثانية بقيادة "تيمورلنك" وكسروا حدّتها رغم التضحيات البالغة التي قدموها. وهم الذين غلبوا الصفويين في معركة "جالْديران" (١٥١٤م)، وكان هؤلاء قد حدّوا سكاكينهم لطعن العثمانيين في الظهر ووقف اندفاعهم في العمق الأوربي. وهم الذين لاحقوا الأسبان والبرتغاليين في محاولات الالتفاف المعروفة على الوجود الإسلامي في إفريقيا والخليج العربي، وقاتلوهم شبرًا شبرًا وذراعًا ذراعًا، وحرّروا الكثير من الديار من قبضتهم. وهم الذين تصدّوا لمؤامرات القوى الغربية الكبرى على عالم الإسلام وبخاصة بريطانيا وفرنسا وروسيا، زمن العنفوان الاستعماري الذي مضى لالتهام ديار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

والعثمانيون هم الذين حَموا فلسطين من محاولات الاختراق الاستيطاني الصهيوني، واستَعلوا على إغراءات هرتزل، وضحّوا بعرشهم من أجل هذا الهدف النبيل. هذا إلى أن الأتراك المسلمين هم الذين تولّوا العبء الأكبر في التصدّي للمحاولات الشيوعية الشرسة والمبكرة لافتراس الأرض والشعوب الإسلامية في آسيا الشمالية.

والعثمانيون أخيرًا وليس آخرًا، هم الذين قاموا بدور مؤكد في حماية عالم الإسلام من مخاطر التمزّق الداخلي، وتوحيد أقاليمه المبعثرة لقرون عديدة، وتمكينها من استعادة فاعليتها في مجابهة التحديات، بل إنهم حتى لحظات الأفول الأخيرة، رفعوا شعار "الجامعة الإسلامية" ودعَوا إليه بحماس منقطع النظير؛ وهو الشعار الذي لقي تجاوبًا مدهشًا من لدن الشعوب الإسلامية كافة، من الهند شرقًا وحتى المغرب الأقصى غربًا، ولكنه أُجهض بالمؤامرات الشرسة للدول الاستعمارية الكبرى، وبخروج الدولة العثمانية منهزمة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وتفتيت أملاكها في كل مكان. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

hiramagazine.com

د. أنس كاريتش*

التربية مع التعليم

يروى في إحدى الحكايات الشهيرة، أن أحد الخلفاء حضر مناظرة اختلف فيها الفلاسفة مع العلماء حول: ما الذي يغلب على الإنسان، الطبع أم التطبّع، الأصل أم التربية؟ أما الفلاسفة فقد زعموا أن التطبّع عند الإنسان يغلب الطبع، وبقوا طول المناظرة مصرّين على أن التعليم يروّض الطبع البشري ويتغلب عليه. وأما العلماء فقد ذهبوا إلى أنه بالرغم من التعليم فإن الإنسان يغلب عليه هواه وطبعه، ولا سيما في أوقات الشر والحرب والفوضى والفتن، وأنّ الطبع كان دائمًا أقوى من التعليم المجرد وخاصة في مثل تلك الأحوال؛ وذلك لأن الطبع هو باطن الإنسان الثابت الذي لا يقبل التغيير، فهو ما "يجري مع الدم في العروق". وعليه فإن العلماء ميزوا بين التعليم وبين التربية، وأكدوا على أن حسن التربية مع التعليم المتين، هما فقط اللذان يمثّلان مجتمِعَين فتحة التصريف الجيدة التي تخفف من حدة تدفق الطبيعة البشرية المجرّدة.

وبعد أن أنصت الخليفة بإمعان لكلا الطرفين، طلب من كل منهما أن يأتي بدليله. وفي الليلة التالية أحضر الفلاسفة معهم هِرّة قد دُرِّبت على المشي منتصبة، ورافعة رجليها الأماميتين وهي تمسك بكوب مملوء بالشاي فتُقدِّمه للحاضرين. وأرادوا بذلك أن يبرهنوا على أن التعليم أهمُّ من الطبع. وفعلاً قامت الهرّة بتوزيع ذلك المشروب المفضل على الحاضرين، وبدا الأمر وكأن العلماء سيخسرون المناظرة، ولكنهم رغم إعجابهم بما أبدته الهرّة من مهارة، طلبوا من الخليفة أن يسمح بعقد جلسة أخرى في الليلة التالية، وأن تُظهر فيها الهرّة مرة أخرى المهارات التي دربها الفلاسفة عليها. وفي الموعد المحدد، انطلقت الهرّة توزع أكواب الشاي على الجالسين، وإذا بالعلماء يُخرجون عددًا من

الفئران ويطلقونها أمام الهرّة، فما كان من الهرّة إلا أن رمت بأكواب الشاي وانطلقت تطارد تلك الفئران.

هذه الحكاية حول نظرية التربية والتعليم، تتحدث وبعمق شديد عن المسائل الرئيسة التي تطرح مع بداية ونهاية كل إجراء تعليمي وكل إجراء تربوي. فهل ينحصر دور الأسرة والمدرسة والعمليات التعليمية في تدريس الإنسان وتعليمه؟ أم يجب عليها في نفس الوقت أن تربيه وتوقظ في طبيعته كل ما هو نبيل؟

التعليم الجماهيري

إن جميع أديان وثقافات العالم تطرح هذا السؤال، ولكن الأديان والثقافات ذاتها هي في الوقت نفسه إجابات عن هذا السؤال. وفي زمان العولمة الذي نعيشه، فإن هذا السؤال يقع في محور حياة الكثير من المجتمعات، ولا سيما في تلك المجتمعات التي نشأت على أيديولوجيات التنوير، لأن القرنين التاسع عشر والعشرين قد جلبا -ولأول مرة في التاريخ- ظاهرةً لم يَعد معها التعليم مقتصرًا على النخبة من العلماء والرهبان والأعيان والنبلاء والحكام.

لقد أصبح التعليم المدرسي في القرنين الماضيين مُيَسَّرًا في كل مكان ومتاحًا للجميع، وهذا أمر ما كان ليتسبب بأي شر لولا أنَّ هذا التعليم قد فُرِّغَ من محتواه التربوي، ولولا أنه تحول إلى الشكل الجماهيري، أي إن العلم صار في القرون الحديثة يُنقل إلى التلاميذ والطلاب والناس جميعًا بطرق جماهيرية؛ بحيث صار يُنظر إليهم على أنهم مجرد جمهور وحشد. وبما أن الجمهور يمثل مفهومًا جسديًّا فإن صور الأفراد لا تُرى فيه، بل إن الصور والخصوصيات الفردية تضيع فيه تمامًا. لذا فإن الأيديولوجيات على اختلافها وتنوعها في القرنين الأخيرين -سواء في الغرب أو في الشرق- ولا سيما تلك التي نجحت في الوصول إلى السلطة، قد وضعت في برامجها السياسية شعار "تعليم الجماهير الشعبية"، ولم يبق سوى خطوة واحدة صغيرة ليتحوَّل "تعليم الجماهير الشعبية" إلى "ترويض الجماهير الشعبية". ومن المعروف أن الأنظمة الاستبدادية التي نجحت في الوصول إلى الحكم قد خطت تلك الخطوة. ولكن الأمر لم يتوقف بالتعليم الجماهيري عند تحويل الطلاب والمتلقين للعلم إلى حشد وجمهور، بل تم تحويل العلم نفسه إلى جمهور، بحيث صار يُنقل في صيغة كتلة من الحقائق المعزولة والمتفرقة عن كل فن من فنون العلم؛ فالفيزياء مستقلة بنفسها، والكيمياء مستقلة بنفسها، وعلم الأحياء مستقل بنفسه... وهكذا تحولت العلوم كلها في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى علوم مستقلة وذَرِّية. إن التعامل مع العلم على أنه حشد من الحقائق يتم نقله عن طريق وسائل التعليم الجماهيري إلى ملايين من التلاميذ والطلاب، ويتم توزيعه على انفرادٍ داخلَ كل فن من فنون العلم التي تفرقت فيما بينها مع مرور الزمن، إن هذا النوع من التعامل قد أدى إلى نتائج رهيبة، حيث لم يَعُدْ العالم -من وجهة نظر التعليم الحديث- كيانًا واحدًا متكاملاً، بل مزقته العلوم تمامًا. وهكذا نجد على مدى القرنين الأخيرين أن أنظمة التعليم الجماهيري هذه، قد أَهملت أكثر فأكثر تربيةَ التلميذ أي تربيةَ الفرد.

تجريد التعليم من التربية

إن الحضارات القديمة كانت تتمركز على ضفاف الأنهار وسواحل الخلجان البحرية الصغيرة، وإن التعليم الحديث وما أنتجه من حشود بشرية متعلمة ولكنها غير متربية، قد سمَّموا تلك الأنهار والخلجان، ولا يوجد عاقل واحد ينفي حقيقة أن التعليم الحديث الذي جُرِّدَ من عنصر التربية، لم ينتج سوى جيش مُرَوَّضٍ من العلماء المفتقرين ليس فقط إلى الإحساس بالحياء من الطبيعة، بل وإلى أدنى تفكير بإمكانية وجوب اشتغال الكيمياء والفيزياء مثلاً بقضية أن يشعر العلماء بالحياء أمام الطبيعة وروعتها وعذريتها.

وإن دَلَّ هذا على شيء فإنه يدل على أن مناهج التعليم الجماهيري بتجريدها للتعليم من عنصر التربية، قد أوصلتنا إلى معرفة متحللة من المسؤولية إلى حَدّ الوقاحة والغطرسة.

فالإنسان المتعلم وغير المسؤول يشبه تلك الهرّة المُدَرَّبة التي تحدثنا عنها في بداية هذا المقال. إن إنسانًا بهذا التعليم، وإن إنسانيةً بهذا التعليم، بل إن هذا التعليم ذاته، سوف يتقهقر ويكون دائمًا الخاسر أمام تدفق الفطرة المجردة. ولكن جموح هذه الطبيعة البشرية المجردة،

hiramagazine.com

المتسلح بهذا التعليم المنفلت من أية مسؤولية، لَيُمثل خطرًا أكبر بكثير من اندفاع تلك الطبيعة عند "بربري" غير متعلم. ولقد تحدث جلال الدين الرومي عن الإنسان المتعلم وفاقدِ التربية، وكيف أنه يستفيد من عقله تمامًا كما يستفيد اللِّص من الشمعة وهو يَسرق.

هذا وإن التعليم الجماهيري والمدارس الحديثة تستقبل التلاميذ بمختبرات مرتبة، ومناهج تعليمية، وكتب مدرسية فعّالة، ولكن الكتب المدرسية في الفيزياء الحديثة لا يوجد فيها ذكر للحياء، كما أن الكتب المدرسية في الكيمياء الحديثة لا تحتوي على كلمة واحدة عن الخجل، أما الكتب المدرسية في علم الأحياء فلا يوجد فيها ولو مجرد إشارة إلى التواضع. ويمكننا أن نسرُد بالتسلسل أسماء كافة العلوم المعروفة في عالمنا اليوم، ويمكننا دائمًا أن نصدر حكمًا قطعيًّا على أن الكتب المدرسية التي تقدم تلك العلوم، لا تتضمن أي ذِكر للثوابت التربوية والأخلاقية، ناهيك عن أنْ تكون تلك الكتب مصَمَّمة وفقًا لتلك الثوابت. وهذا يدل على أن تلك الكتب المدرسية تَقرأ الطبيعةَ عمومًا والطبيعةَ الإنسانية خصوصًا وكأنها آلة، ولا تَقرأ على صفحاتها المتعددة ذلك الهدف السامي الموجود وراء مستويات العالم التي ندركها بالعقل.

إن كتب الفيزياء والكيمياء والأحياء لم تُفَرَّغْ من الحياء والخجل وتأنيب الضمير فقط، بل إنها فُرّغت من الروعة والجمال والخلود ومن العالم والطبيعة. على سبيل المثال، نجد أن التعليم المعاصر ما عاد يندهش أو يعجب من طبيعة الماء البديعة، ومنذ فترة بعيدة والتلاميذ والطلاب يدرسون الماء على أنه مجرد ثروة صناعية! ويدل هذا على أن تلك الكتب المدرسية العصرية تُعَلِّم ولكنها لا تُرَبّي. والتربية قبل كل شيء، تعني الاعتراف بالهدف السامي والسبب الرفيع للتعلُّم والعِلم والتعليم. إن التربية تقوم على الثقافة، والثقافةَ تقوم على الدين، والدينَ يقوم على المَقصد الأخير ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

إن معرفة القوانين الهيدروليكية ومعرفة إقامة شبكة المياه أمر يستند إلى التعليم، أما الاغتسال بالماء فمرَدُّه إلى التربية والثقافة، كما أن معرفة صيغة الصابون

فكما أن التعليم تدريب للقدرات الذهنية، فإن التربية تنوير للضمير الداخلي وتنوير للقلب ذاته، ولذلك فإن التعليم والتربية جانبان متساويان ضروريان لاعتدال الإنسان الروحي.

حراء

وصناعته أمر علمي، أما استخدام الصابون عند الحاجة فهذا مَرَدُّه إلى التربية.

روح الإنسان والتربية

إن الأنظمة العصرية لابد لها -عاجلاً أو آجلاً- أن تستعيد في ذاكرتها المناقشات الكلاسيكية حول روح الإنسان والتربية، ولابد لها من العودة إلى معلّمي الإنسانية القدماء الذين حدّدوا مجال التعليم ومجال التربية. وكما أن التعليم تدريب للقدرات الذهنية، فإن التربية تنوير للضمير الداخلي وتنوير للقلب ذاتِه، ولذلك فإن التعليم والتربية جانبان متساويان ضروريان لاعتدال الإنسان الروحي.

ولكن التعليم الحالي يعاني من خلل كبير في التوازن بين هذين الجانبين، لأن التعليم بدون تربية يتحول إلى قوة هدّامة تهيمن على الطبيعة وعلى المجتمع البشري، أما التربية المجردة عن التعليم فرغم أنها تؤدي إلى الاستقامة الأخلاقية، إلا أنها مع مرور الزمن تضعف وتتحول إلى المواساة كملجإٍ وحيد يُلجأ إليه.

إذن، عند إقامة التوازن من جديد بين ذاك "كيف نتعلم" وذلك "كيف ينبغي" و"كيف نحسن صنعًا"، لابد لنا أن نستحضر في أذهاننا أن التعليم والتربية ليسا عمليتين يكتسبهما الإنسان دفعة واحدة إلى الأبد، بل إن التعليم والتربية عمليتان مستديمتان ومتجددتان ينبغي دائمًا الرجوع إليهما والسهر عليهما.

وعندما يتعلق الأمر بالتربية والتعليم، فإن السؤال الرئيس الذي سنبحث عن إجابة له في القرن الحادي والعشرين هو: كيف التوصل إلى التعليم المربّى، وكيف نحقق التربية المتعلمة؟ والبشرية التي تنجح في التوصل إلى هذه التركيبة ستكون هي البشرية السعيدة. ■

(*) كلية الدراسات الإسلامية، سراييفو / البوسنة والهرسك.

hiramagazine.com

د. محمد الشرقاوي*

عقول الأطفال صحائف بيض، فما لم تُمْلأ بالمفيد من العلم والمعرفة ظلَّت خاوية، فيسرع الآخرون بملئها بما يشاءون من أفكار مسمومة، وعلوم مشؤومة... أيها الوالدان انتبها، فالأمر جدٌّ.. فالأمر جدٌّ!.

الموازين

قيم التعايش المشترك ومبادئه في وثيقة المدينة

لقد وجه الإسلام الناس إلى وحدة أصلهم، وأن تعدديتهم ضرورة لتعارفهم وتكاملهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣)، وقال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد،

وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟" (رواه الإمام أحمد).

التعدد والاختلاف سنة إلهية

إن "صحيفة المدينة" أو "وثيقة المدينة" التي وضعها رسول الله ﷺ وقد حرص على تسطيرها وكتابتها، قد أسست للعيش المشترك بين مواطني "دولة المدينة" الناشئة التي أقامها الرسول ﷺ وتولّى إدارة شؤونها وقيادتها. بعد هجرته ﷺ إلى يثرب، غيّر اسمها إلى "المدينة" وآخى بين المهاجرين والأنصار على اختلاف قبائلهم وتعدد عشائرهم، ثم أقام دولة مستقلة.

في المدينة دولة، لها إقليم جغرافي معلوم محدد، ويتكون مواطنو هذه الدولة من المسلمين، ومن اليهود، ومن بعض المشركين، مما يعني أن أديان وعقائد هؤلاء المواطنين في الدولة الوليدة متعددة، وأن قبائلهم (أعراقهم) متنوعة، وأن ثقافاتهم متفاوتة.

ومن هنا فقد جاءت وثيقة المدينة الدستورية لتعلن أسس ومبادئ حكم الدولة، وواجبات مواطنيها، والعلاقة بينهم وبين رئاسة الدولة -متمثلة في الرسول ﷺ- وكل ما لهم وما عليهم من حقوق وواجبات دستورية.

والاطلاع على هذه الوثيقة يوقفنا على نص دستوري لا نعرف في تاريخ الفكر الإنساني قبله نصًّا يشبهه في التأسيس للعيش المشترك بين مواطني دولة ناشئة يحملون كل أشكال الاختلاف وصنوف التعدد. ومن هذه القيم الإقرارُ بمبدأ التعددية -بكل تجلياتها- والقبول بالآخر المختلف دينيًّا وعرقيًّا وثقافيًّا، أي القبول بحق كل منّا في الوجود.

أقرّت الوثيقة أن "يهود بني عوف أمة مع المؤمنين"، وهذا ليس حقًّا ليهود بني عوف وحدهم، ولكنه حق كذلك ليهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، ويهود بني ثعلبة، ويهود بني الأوس، ويهود جفنة، ويهود بني الشُّطيبة، بل هو حق لبطانة اليهود فضلاً عن بطونهم ومواليهم.

لقد أوضحت وثيقة المدينة أن العدل في باب القضاء أساسٌ عظيم لضمان تعايش المواطنين في الدولة. وفرضت الوثيقة على الجميع، أن يكونوا ضد الظالم يدًا واحدة، وأنه لا يحل لهم إلا أن ينصروا المظلومين ضد الظالمين.

حراء

ولقد حرصت الوثيقة على تأسيس هذا المبدأ المهم وتوضيحه لجميع المواطنين، وهو أن المسلمين واليهود في المدينة دولة الرسول ﷺ أمّة واحدة: "وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (أي لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته".

ولقد جاء تأكيد إقرار الإسلام بالتعددية الدينية في الوثيقة: "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"، ومع ذلك هم أمة واحدة سياسيًّا ودستوريًّا وإن كان لكلٍّ دينه الذي يختص به. وهذا يذكّر بما جاء في كتاب الله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦)، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(الحج:١٧).

لقد أوردت الآية أصحاب العقائد والأديان من المسلمين (المؤمنين)، واليهود والنصارى والصابئين، والمجوس والمشركين جنبًا إلى جنب، ثم بيّنت بأن سلطة الفصل بين أتباع الأديان بيد الله تعالى وحده، وأن هذا الفصل الإلهي بين أتباع الأديان موعده يوم القيامة وليس في هذه الحياة الدنيا، وعلى أتباع الأديان أن يتعايشوا بسلام وتعاون في هذه الحياة الدنيا، وأن يقبلوا بعضهم بعضًا وأن يقرّوا بحق الجميع في الوجود، وليس لأحد منهم سلطة الفصل في شأن عقائد الآخرين.

وكلمة "أمّة" في لغة العرب تحمل معاني متداخلة بدءًا من الجماعة المتميزة عن غيرها بخصائص، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا﴾(الأعراف:١٦٨)؛ أي جماعات لها خصائص ليست في غيرها. وعليه

hiramagazine.com

فهناك "الأمّة" على مستوى الدين والعقيدة، وقد أشارت الوثيقة إلى ذلك عندما تحدثت عن المؤمنين من المهاجرين والأنصار، قالت عنهم: "إنهم أمة واحدة من دون الناس".

أمة واحدة بالوصف الديني العقدي (أمة واحدة من دون الناس)، أما بالمعنى السياسي الدستوري فهُم مع غيرهم من المواطنين -الذين يختلفون معهم في الدين والاعتقاد- أمة واحدة.

الوثيقة والمقاصد العليا

لا تتحدث الوثيقة وهي تضع الأسس الدستورية للحكم في دولة الرسول ﷺ في المدينة، إلا عن المبادئ الكلية والمقاصد العليا للشريعة الإسلامية، ولا تتوقف الصحيفة عند الفروع والجزئيات والظنيات والأحكام التفصيلية الاجتهادية التي ستتغير مع تغير الزمان والأحوال والمواقف.

الصحيفة تقرر مبدأ حرية الاعتقاد والتدين: "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"، فلا إكراه ولا سيطرة للرسول ﷺ -وهو الحاكم الشرعي للدولة- عليهم، فحرية الاعتقاد مكفولة بنص الصحيفة لجميع المواطنين في دولة المدينة.

لقد ضمن الإسلام للناس حرياتهم، أي حقهم في الاختيار، لأنها فطرة أصيلة فطرهم الله عليها، أي هي عطية إلهية للناس لا يحق لأحد مصادرتها.

وقد أكد القرآن الكريم في آيات عديدة حق الناس في اختيار عقائدهم بحرية تامة، يقول تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢٢)، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٩٩).

ولابد أن نذكر هنا أن هذه التوجيهات القرآنية والنبوية بشأن إقرار حق الناس في الاختيار بحرية تامة، كان أمرًا جديدًا وغريبًا في تاريخ الإنسانية، وكان فتحًا جديدًا أمام الإنسان ليتسامى في تحقيق كمالاته.

لقد كفلت الشريعة الإسلامية حرية التفكير وحرية الرأي وحرية الاعتقاد، فالقرآن كله من أول سُوَره إلى آخرها، لا يقيم غير برهان العقل برهانًا على اختصاص الله وحده بالألوهية، ولا يدين العاقلون لأحد بها سواه[١]. فحكم الإسلام في حرية الاعتقاد، هو منع أي إنسان من مضايقة أحد بسبب اعتناقه لعقيدة معينة ومحاولة فرض عقيدته وقناعاته عليه، ففرض العقيدة أمر مستحيل، وتأنيب الآخرين بسبب عقائدهم أمر مرفوض تمامًا[٢].

ومن أسس العيش المشترك كما تحدثت الوثيقة "العدل". لقد أسست الصحيفة للعدل كمبدأ دستوري للحكم، وكمبدأ للتعايش بين مواطني دولة الرسول ﷺ في المدينة. يلفت الانتباه تكرار كلمة "القِسْط" -وهي المعبَّر بها عن العدل- ثماني مرات في نص الوثيقة، وقد جُمعت إليه "المعروف" فتحدثت عن "القسط" و"المعروف" معًا. وقد اتضح العدل في كل التصرفات بين مكونات مجتمع الصحيفة، مثل "على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم"، هذا في وقت السلم، أما في وقت الحرب "وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين"، وقد تكرر هذا في الفقرة ٢٤.

وأن العدالة التامة الشاملة مقررة للجميع: "وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم"، وأن حق الانتقال مكفول لجميع المواطنين بـ"القسط: "وأنه مَن خَرَج آمِنٌ، ومَن قَعَد آمِنٌ بالمدينة إلا مَن ظلم أو أَثِم" بغض النظر عن عقيدته أو قبيلته. وما أجمل ختام هذه الصحيفة: "وأن الله جارٌ لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله".

والعدل (القسط) بين المواطنين، وبين الحاكمين والمحكومين، يُعتبر بحقٍّ أولَ المبادئ الدستورية للحكم في الشريعة الإسلامية، ولقد أمر الله تعالى به في كتابه وأوجبه بآيات قطعية الدلالة: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾، ولقد حرم الله تعالى الظلم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(النساء:١٣٥)، ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ

hiramagazine.com

وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأنعام١٥٢)، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد:٢٥).

وبيّن ابن القيم في "الطرق الحكيمة" أن إقامة العدل بين الناس على تعدد أديانهم وأعراقهم هو المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل، وأن السياسة العادلة جزء من الدين، فإذا ظهرت آمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان "فثمّ شرع الله ودينه".

وقد أوضحت وثيقة المدينة أن العدل في باب القضاء أساسٌ عظيم لضمان تعايش المواطنين في الدولة، "وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة (أي من قتل بغير جرم)، فإنه قود به (أي يقتل القاتل قصاصًا) إلا أن يرضى وليُّ المقتول (بالعقل)، (أي بالدية)". وتفرض الوثيقة على الجميع أن يكونوا ضد الظالم يدًا واحدة، وأنه لا يحل لهم إلا أن ينصروا المظلومين ضد الظالمين "وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا القيام عليه".

ومنه أن الوثيقة قد شرّعت لمبدأ قضائي مهمّ، وهو عدم نصرة المجرمين الآثمين وعدم إيوائهم والتستر عليهم، لأن في ذلك منعًا أو تعطيلاً للعدالة أن تأخذ مجراها "وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدِثًا (أي مرتكب جريمة) أو يُؤويه"، وتتوعد الصحيفة من يفعل ذلك "وأن مَن نصَرَه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه عدل (أي فداء) ولا صرف (أي توبة).

كما تقرر الصحيفة لمبدأ قضائي عدليّ حكيم، وهو أن المسؤولية الجنائية فرديةٌ، وبالتالي فإن العقوبة عليها لابد وأن تكون شخصية خاصة بمن ارتكب الجريمة، ولا يسد أحد مسده في تحمل العقوبة بدلاً منه، قررت الوثيقة ذلك في أكثر من فقرة منها: "إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (أي يهلك) إلا نفسه وأهل بيته"، "وأنه من فتك فبنفسه فتك وبأهل بيته"، "وأنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه"؛

صحيفة المدينة، تقرر مبدأ حرية الاعتقاد والتدين: "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"، فلا إكراه ولا سيطرة للرسول ﷺ -وهو الحاكم الشرعي للدولة- عليهم، فحرية الاعتقاد مكفولة بنص الصحيفة لجميع المواطنين في دولة المدينة.

حراء

أي إنْ ارتكب حليفه جرمًا يستوجب عقوبة قضائية.

"لا يكسب كاسب إلا على نفسه"؛ وهذا هو التغيير الهائل الذي أحدثه الإسلام عمومًا وهذه الوثيقة خصوصًا في تقرير مبدأ "المسؤولية الفردية"، وقد وضح القرآن هذا في آيات عدة منها: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(فاطر:١٨)، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(الطور:٢١).

ومن أخلاقيات التعايش المشترك التي حضّت عليها الوثيقة، ودفعت المواطنين في الدولة "المدنية" دفعًا لممارستها واعتبارها خُلُق التناصر والتناصح والبر دون الإثم. وأسست الصحيفة لمبدأ وجوبية نصرة المظلوم على الجميع: "وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النّصر للمظلوم".

ولقد حرصت الوثيقة على أن التعامل بالمعروف والفضل، يساعد على العيش المشترك، وأكدت عليه في غير ما فقرة "وأن البرّ دون الإثم"، "بالمعروف والقسط"، "إلا على سواء وعدل بينهم".

وتجعل الوثيقة حق الجار من حق النفس: "وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم"، "وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها"، حق الجار أن يستأذن جاره أو أن يتشاور معه في ما له علاقة بجوارهم المشترك، "وأنه من يتبعنا من يهود، فإن له النصرة والأسوة (أي المساواة في حقوق المواطنة) غير مظلومين ولا متناصرين".

ومن مبادئ العيش المشترك التي أسست لها هذه الوثيقة الدستورية، أن الشعب الواحد في الدولة يمكن أن يتكون من مجموعات دينية وعرقية وثقافية متعددة، ويتشارك الجميع -والحالُ هذه- في المواطنة ويتساوون في حقوقها وتحمّل واجباتها المالية والدفاعية، وتسودهم قوانين عدلية واحدة، وتكون المسؤولية الجنائية فردية

hiramagazine.com

وعليه فالعقوبة تكون شخصية، ويتشاركون في ممارسة مكارم الأخلاق من البر والمعروف وحسن الجوار ورعاية واجباته، أي إن هناك حقوقًا وواجبات دستوريةً سياسية واقتصادية وعسكرية وسلوكية... يستوي فيها جميع المواطنين مهما تعددت مجموعاتهم واختلفت عقائدهم.

وتعطي الصحيفة الحق لكل جماعة بأن تنفرد ببعض الممارسات الخاصة التي تتعلق بالجماعة ولا تتعارض مع الحقوق والواجبات العامة لجميع المواطنين.

نلاحظ أن الصحيفة تحدثت عن جماعة المؤمنين المسلمين من المهاجرين والأنصار، وتحدثت عن اليهود على تعدد قبائلهم وبطونهم وحلفائهم، وأشارت إلى بعض المشركين، وتحدثت عن العام والخاص، بحيث لا يتعارض ما هو للفرد بحسبانه مواطنًا في دولة مع ما هو له بحسبانه فردًا في جماعة (دينية أو عرقية) داخل هذه الدولة، بينت الوثيقة ذلك بيانًا مهمًّا يحترم الهوية الخاصة بكل جماعة داخل الهوية العامة للدولة ككل، فقد خصت الوثيقة المسلمين بأشياء، وخصت اليهود بأشياء، وألزمت الجميع بأشياء دونما تعارض أو تناقض. وقد رأينا في الصحيفة أن العدل، والمساواة، والحرية، والبر والمعروف، والحماية والنصيحة، حقٌّ لكل مواطنٍ فردٍ في "دولة المدينة" بقطع النظر عن انتمائه لهذه الجماعة أو تلك، وبقطع النظر عن الاعتقاد بهذا الدين أو ذلك.

ولقد فتحت الصحيفة الباب واسعًا أمام مواطنيها من اليهود، لكي يستجيبوا إذا ما دعوا إلى الصلح، وإذا دعا المواطنون اليهود إلى صلح مع آخرين، فإنه يتوجب على المواطنين المسلمين أن يلتزموا بهذا الصلح ما لم يكن مع قوم يحاربون الدين: "وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه (يشاركون فيه)، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين".

وحين نقرأ هذه الوثيقة يستدعي الذهن "العهد النبوي إلى نصارى نجران" وقد جاء فيه: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهبٌ من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقًّا بينهم النصف (القسط والعدل) غير ظالمين ولا مظلومين"[٣].

إن مثل صحيفة المدينة والعهد النبوي لنجران وملحقاتهما، والعهود العمرية من بعد، قد حفظت للمواطنين من أهل الكتاب وضعًا دستوريًّا متميزًا في الدولة الإسلامية، فقد حصّن الرسول ﷺ حقوقهم بكونهم في جوار الله وفي ذمة محمد النبي رسول الله، وقد ختمت صحفية المدينة بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "وأن الله جارٌ لمن برّ واتقى، ومحمدٌ رسول الله".

ولا ننسى أن هذه الصحيفة الدستورية قد كُتبت في زمان لم تكن فيه حقوق للمواطنين مرعية في الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية فضلاً عن قبائل العرب في شبه جزيرتهم، ولو نظرنا إلى محاولات كل من أفلاطون وأرسطو لصياغة نظرية سياسية للمجتمع اليوناني، لأدركنا الفروق الهائلة بين "صحيفة المدينة" ونظريات فلاسفة السياسة التي صاغها كل من أفلاطون في (جمهوريته) وأرسطو في كتابه عن السياسة.

ولا ريب أن الأحكام والأسس التي تضمنتها هذه الوثيقة، وكذلك العهد النبوي لأهل نجران، والعهود العمرية من بعدُ، ينبغي أن تكون ضابطة لمذاهب الفقهاء ولممارسات الحكام المسلمين مع مواطنيهم. ■

(*) كلية دار العلوم، جامعة القاهرة / مصر.

الهوامش

(١) في النظام السياسي للدولة الإسلامية، لسليم العوا، دار الشروق ٢٠٠٨، ص:٢١٤.

(٢) حقوق الإنسان في الإسلام، جواد المصطفوي، نقلاً عن المرجع السابق، ص:٢١٦.

(٣) كتاب الخراج، لـ"أبو يوسف"، ص:١٥٥-١٥٩، (نقلاً عن سليم العوا، ص:٢٥٠).

د. محمد باباعمي*

نظرية الانبثاق وحتمية التواصل

قد يأخذ الحديث عن "التواصل" منحىً أدبيًا لفظيًا، ويُستعان في ذلك بالحِكَم والأمثال والأشعار، وهذا الاختيار له إيجابيته وسلبياته.

وقد يتم معالجة معضلة "التواصل" من خلال علوم إنسانية من مثل "علم الاجتماع"، و"علم الإعلام"، و"علم النفس"، فيُحشر ضمن الأعمال المتخصِّصة ويفيد في مجاله ولغايته وغرضه.

وقد يُتعرَّض لـ"التواصل" تربويًا مِن مدخل العلاقة بين مكوِّنات العملية التربوية؛ فيكون له أثره في المدرسة والجامعة حسب أهمية الطرح وعمقه[1].

وللفقه والعقيدة والتفسير[2] والحديث... أيْ ما يمكن تصنيفه تحت خانة "العلوم الإسلامية"، أوجهٌ كثيرة يمكن أن تؤسِّس لعلم التواصل من منطلق شرعي فكري قرآني إسلامي، شريطة أن لا تُحشر في سياق "أسلمة العلوم" بعمل سطحي بسيط.

إن تفـزُّق العقول وتشـتتها اليـوم -في واقعنا وضمن وعائنا الحضاري- مقدمة للوهن والهزيمة في أجزاء الأمة الإسـلامية كلِّها، وإن تفوّق الغرب وتمكُّنه كان بسبب "تجمُّع العقول والسواعد" في جميع الأصعدة والمستويات.

حراء

أمَّا في هذا المقال المختصر، فقد رأيت من المفيد الاستعانةَ بمقاربة "نظرية المعرفة" وكذا "الفيزياء" المعاصرة، للتطرق لهذا الجانب الأساس من جوانب حركية الإنسان على خط الزمن.

وعنوان هذا المدخل: "نظرية الانبثاق أو التولد".

فمن حيث تعريف التولُّد أو الانبثاق (Emergence)[3]، فهو "عمليةُ تشكُّلِ نمطٍ معقَّدٍ من قواعد بسيطة أو مكوِّنات بسيطة. وتعني أيضًا، ظهور وظيفة معيَّنة اعتمادًا على مكوِّنات بسيطة في حدِّ ذاتها غير قادرة على القيام بالوظيفة، لكنَّ تواصلها (أي تواصل هذه المكوِّنات

البسيطة للنظام) يُعطي نظامًا يكون وظيفيًّا أكثر من جملة مكوناته، أي أنَّ العلاقات بين مكوّنات النظام -إضافةً إلى مكوِّناته- تُعطي الوظيفة المعقَّدة النهائية المرجوَّة التي لم تكن محقَّقة في مكوناته الأصلية البسيطة"[٤].

ويلاحَظ في هذا التعريف ورود العديد من المفاهيم التي هي من أساسيات فنِّ "التواصل"، وهي:

١- المكوِّنات البسيطة.

٢- النمط المعقَّد (النظام الكلي).

٣- التواصل بين المكونات (العلاقات).

وإذا ما أسقطنا المفهوم على مشروع إنساني معيَّن، وليكن "مؤسسة"، أو "مدرسة"، أو "مجتمعًا" ما، أو "جماعة علمية" -وهو محل اهتمامنا حاليًّا- فإنَّ الآحاد والأفراد الذين يتكوَّن منهم هذا الكيان، قد يكونون في حدِّ ذاتهم إذا ما نظرنا إليهم "واحدًا واحدًا" "فردًا فردًا"، قد يكونون دون المطلوب، بُسطاء، يتّصفون بصفات لا ترشحهم فرادى للمهمَّة. وإذا ما أضفنا فردًا إلى فرد في عملية حسابية رياضية مغلقة، فإنَّ الثمرة والنتيجة تكوِّن مجموع خصائصهم، لا بل -أحيانًا- تغلب الصفات السلبية فتكون أقلَّ من مجموعهم الرياضي[٥]، وأحيانًا أخرى -وهذا كثير- قد يستحيل الجمع بينهم، لأسباب نفسية أو تاريخية أو اعتبارية... وهو حال الأمم التي تعاني مما يُعرف بـ"الطاقات المعطَّلة"[٦].

لكن، لو عملنا على "العلاقة بين المكوِّنات البسيطة"، وربطنا بين "الأفراد ربطًا محكمًا" بناء على شروط موضوعية وذاتية، كالتي حقَّقها النبي محمد ﷺ في المدينة المنورة بعد الهجرة فيما عُرف بـ"المؤاخاة"؛ لو فعلنا ذلك في أيِّ كيان كان، فإنَّ النتيجة تكون "بركةً" بعينها، والبركة هو المصطلح اللائق للتعبير عن أنَّ "الكلَّ أكبر من مجموع أجزائه". وبهذا نحقق "نظامًا" مكثفًا فعّالاً باعتماد نظرية "انبثاق" الطاقة والحركية من "العلاقات"[٧].

وعملية "الربط واستثمار العلاقات" هذه، عملية ديناميكية؛ للزمان والمكان والظروف والأحوال أثرها الدائم المتجدِّد عليها، وهي ليست عمليةً إستاتيكية خاملة تحدث مرَّة واحدة ثم تنتهي، ومن ثم وجب ضمن إدراة المؤسَّسات والكيانات البشرية، العملُ الدؤوب المتواصل على جبهة العلاقات، واعتبارها محدِّدًا رئيسًا في تحقيق الرسالة أو الإخفاق فيها[٨]، ولعل رسمًا بيانيًّا مقارنًا بين "مؤسَّسات" مِن عالم متخلِّف، إذا ما قورنت بمثلها في عالم متحضِّر، تعطينا تلازمًا واضحًا بين "حجم ونوع العلاقات" من جهة، و"نجاح أو فشل" تلك المؤسسة من جهة أخرى. فكلما تكثَّفت العلاقات تطوَّرت المؤسسة، وكلما ترهلت تلك العلاقات كانت المؤسَّسة عرضة للانهيار.

ولعل أحسن مثال على أهمية "الانبثاق"، يلاحظ في جسم كلِّ واحد منَّا ليعرف مدى أهمية هذا الشأن، وذلك في "الشبكات العصبية"؛ حيث إنه من خلال التفاعلات بين عدد ضخم من العصبونات[٩]، يصبح الدماغ البشري قادرًا على التفكير، مع أنَّ المكوِّنات الأساسية لهذه الشبكات -أي الخلية العصبية في حد ذاتها- غير قادرة على التفكير. وبالتالي يمكن القول إنَّ وظيفة أو سلوك التفكير، انبثق من حيث لم يكن موجودًا في المكونات الأساسية الأبسط"[١٠].

ولابد من التنبيه إلى أن "الذكاء" البشري نفسه، يفسَّر فيسيولوجيًّا بعدد الوصلات التي تربط بين خلايا المخّ، أي بالعلاقات وكثافتها، ويعرَّف منطقيًّا بأنه القدرة على الربط وإيجاد العلاقات بين ما يتعامل معه الإنسان، بحيث يعجز مَن هو أدنى ذكاء مِن إيجاد مثل هذه العلاقات. وفي كلا الحالين -ورغم صعوبة تعريف الذكاء- يبقى التواصل والاتصال محدِّدًا رئيسًا في عملية الذكاء[١١].

وننهي هذه المقالة المختصرة بنتيجة، هي أنَّ نظرية الانبثاق في كلِّ عناصر الحياة والمخلوقات التي خلقها الله ﷻ -بخاصَّة عند النبات والحيوان ثم الإنسان- تدفعنا إلى التفكير الجدِّي في أهمية "التواصل والعلاقات" في المجال الفكري والحضاري. ولعل من المفيد تعريف الحضارة من هذا المدخل، وهي "قدرة مجتمع ما أن يبني من مكوناته البسيطة نظامًا كثيفًا فعَّالاً، قادرًا على فعل ما لا يفعله مجموع أجزائه".

ويمكن تفسير العديد من آيات كلام الله تعالى بهذا

hiramagazine.com

المعنى، من مثل قوله سبحانه:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال:٤٦)؛ والريح هنا، هي ثمرة التواصل، بالاختلاف تذهب وتزول، وقد يعني لفظ الريح الإرادةَ، والعزة، والدولة، والغلبة، والقوة... كما يعني رضا الله تعالى عنكم، وتوفيقكم للخير، ونصرتكم.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(آل عمران:١٠٣)؛ فالاعتصام بحبل الله وعدم تفريق الطاقات، يؤدي إلى انبثاق عظيم من خلال نصرته سبحانه وتأليفه بين القلوب والنجاة في الدنيا والآخرة.

وغير هذه الآيات كثير، كله دال على بركة الاجتماع والتواصل وربط العلاقات في أيّ جسم كان؛ الأسرة، والمدرسة، والمؤسسة، والمجتمع... ونخصّص "الجماعة العلمية" التي هي عصب الحياة للأمم والمجتمعات، ذلك أن تفرُّق العقول وتشتتها اليوم -في واقعنا وضمن وعائنا الحضاري- مقدمة للوهن والهزيمة في أجزاء الأمَّة الإسلامية كلِّها، وأنَّ تفوّق الغرب وتمكُّنه كان بسبب "تجمُّع العقول والسواعد" في جميع الأصعدة والمستويات، وهو ما يعبّر عنه بعض النقاد بـ"شبكة العلاقات الاجتماعية". ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(١) في التاسع من سبتمبر ٢٠١٣، كانت لي محاضرة عبر السكايب، لأربع فروع من المدارس العلمية في الجزائر بعنوان: "بناء العلاقات، وخصائص المرابطين على تلة الرماة"، أي المشتغلين في مجال التربية.

(٢) انظر -مثلاً- ماجد رجب سكر: التواصل الاجتماعي، دراسة قرآنية موضوعية؛ الجامعة الإسلامية، غزة. ماجستير، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م. ويدرَج التواصل أحيانًا تحت باب "آداب الحوار"، وأحيانًا ضمن "الدعوة". بل إنَّ بعض الجامعات الإسلامية، لها تخصص باسم: "الدعوة والإعلام".

(3) Jeffrey Goldstein: Emergence as a Construct, History and Issues. Philip Clayton et Paul Davies, The Re-Emergence of Emergence: The Emergentist Hypothesis from Science to Religion, Oxford University Press, 2006.

(٤) من الضروري التفريق بين "الانبثاق" باعتباره سنة كونية وصيغة حركية في نظام الكون -وهو المعنى الذي نقصده- و"الانبثاق الذاتي" الذي يفترض نفس "الفاعل الأوَّل"، وهو من الأدلة التي اعتمدتها نظرية التطور، لنفي أيّ تدخل خارجي في عملية الخلق؛ من هنا يعرَّف "التولُّد التلقائي أنه نظرية كانت تزعم أنَّ أنماطًا معينة للحياة، مثل الذباب والديدان والفئران من السهولة بمكان أن تنشأ مباشرة من أشياء غير حيَّة مثل الطين واللحم المتحلل. وتعود هذه النظرية إلى عهود ما قبل التاريخ، وظلَّت مقبولة على نطاق واسع آلاف السنين وقد ناقضتها التجارب العلمية كتلك التي أجراها عالم الأحياء الإيطالي "فرانسيسكو ريدي" في عام ١٦٦٨م"، وكذا العالم الفرنسي "لويس باستر" الذي "أدَّت اكتشافات باستير إلى ظهور نظرية الخلية حول أصل المادة الحيَّة. وتقول نظرية الخلية إنَّ الحياة تنشأ من مادة حية سبق وجودها".

(٥) من الحقيقة البارزة في المجال الإنساني أنَّ "الضعف لا ينضاف بعضه إلى بعض"، فإذا ما أضفت ضعفًا إلى ضعف آخر، تولد ضعفًا أشدَّ وعجزًا أحدَّ. ولا يتحول ذلك إلى قوة ولا إلى قدرة. ولذا فإنَّ النظرية لا تعنى بالسلب ولكن بالإيجاب.

(٦) انظر -مثلاً- محمد الغزالي؛ الإسلام والطاقات المعطلة.

(٧) قول الأستاذ فتح الله كولن في مقال "رسالة الإحياء": "إن الهمم والمبادرات الفردية، إنْ لم تنضبط بالتحرك الجماعي ولم تنظَّم تنظيمًا حسنًا، فستؤدي إلى تَصادُم بين الأفراد لا محالة... ينبغي أن لا تُطفأ جذوةُ الطاقات الفردية بتاتًا، باحتساب ضرر قد تسببه. بل على العكس؛ تجب العناية الرفيعة بها حتى لا تُهدَر ذرةٌ واحدة منها، وتُوجَّهَ جميعًا نحو تحقيق الهدف المنشود الذي تم تعيينه سابقًا، ويزاح خُلُق المصادَمة في النفوس، ويستبدل به روح التوافق، ويُسعى إلى تطبيع إنساننا بهذا الطبع مهما أمكن"، ونحن نبني حضارتنا، ص:٤٦.

(٨) يجب أن يكون "مسؤول العلاقات" أو "مكتب العلاقات" في المؤسسات والمشاريع والمجتمعات، مكونًا دائمًا فعَّالاً لا مجرد شعار، أو على صورة هبَّات وحملات كمثل شُعلة سعف النخل، ما تلبث أن تنطفئ بعد أمد قصير من الالتهاب.

(٩) عدد العصبونات في مخ الإنسان، مقدرة بين ٨٦ و١٠٠ مليار.

(١٠) استفادت تكنولوجيات الإعلام، بخاصة مجال الكمبوتر والأنترنت، من هذا المفهوم، وسجلت الدخول إلى عصر جديد، يعتمد العلاقات بشتى أنواعها: الشبكات الاجتماعية، التسوق الإلكتروني، الدراسة عن بعد... غير أنَّ الإنسان يعجز عن صنع "جهاز" يفكر، أي جهاز تنبثق من مكوناته أفكارًا توليدية جديدة، غير محتملة ولا محسوبة ولا متوقعة أساسًا. وخاصية "العقل التوليدي" من خصائص النظرية الكونية التوحيدية القرآنية.

(١١) ينظر الرابط: http://www.intelligence-humaine.com

hiramagazine.com

الآذان شبعى والعيون جوعى

إذا وحّد العبد بين "القال-والحال"، عَلَتْ منزلته عند مولاه، ومَن عَلَتْ منزلته عند مولاه، ارتفعتْ مكانته في النفوس، وكان لِقالِه وقعٌ في القلوب. فـ"القال-والحال" طرفا "لسانٍ واحد" له ما له من الأهمية في إعلاء الحق وتمثيله وتبليغه... وإذا ما صدع هذا اللسان بالحقيقة زلزل القلوب. ذلك هو شأن من جمع بين الحال والقال ولم يفصل بينهما؛ فكلماته تترك في القلوب أثرًا لا ينمحي ويُكتَب لها الخلود. وفي الأثر أن الله أوحى إلى عيسى ابن مريم: "عِظْ نفسَك بحكمتي، فإن انتفعتْ فعِظ الناس، وإلا فاستحي مني"، وفي هذا أبلغ البيان للسر الكامن وراء تصديق القول بالفعل.

على المرء إذًا أن يقوم بما آمن به أولاً، ثم ينطلق ليبوح -بتجرّدٍ وفناءٍ والتفات عن الذات- بما خالج صدره من مشاعر، وما تردد في أعماقه من أصداء، وما انقدح في ذهنه من أفكار إثر قيامه بما آمن به. ألاَ فليستحي من يعظ -مثلاً- في التهجد والقيام وهو في ليله من الغافلين النيام، وكذا من يعظ في الخشوع والخضوع وهو في صلاته غافل لاهٍ لم يلتزم بما يجب من الأدب والوقار بين يدي الله، ولا ينبسّ ببنت شفة عن "نَذْر العمر للآخرين" من كان بلا "قلب منذور" للآخرين. أجل، لقد قضت حكمة الخالق أنّ تأثير القول رهن بتخلّله في قائله وقيامه به، فقال منبهًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾(الصف:٢-٣).

ولا يذهبنّ بأحدٍ الوهمُ إلى أنّ الآية عندما تحذّر المؤمنين وتُنكر عليهم بصيغة السؤال، أنها تقول لهم: "كُفّوا عن قول ما لا تفعلون"، بل تقول لهم: "قد غدوتم ترجمانًا للحق بأقوالكم، فلِمَ لا تترجمون أقوالَكم إلى أفعال أيضًا؟ فالقول المنفصل عن الفعل هو من أعظم ما يجلب غضب الجبار ومقته". إذًا ليس المراد منع الإنسان من قولِ ما لم يفعلْ، بل تحفيزه على فعل ما يقول... فالفعل عبادة والقول عبادة، فإذا تركهما معًا فقد اقترف إثمين اثنين وحُرِم "التأثيرَ" من وجهين، ومن ترك أحدَهما فقد اقترف إثمًا واحدًا وحُرِم "التأثير" من وجه واحد.

أجل، قولُك لما لم تفعل، أو بالأحرى تركُك لفعل ما تقول، يجلب الغضب الإلهي، ويُخمد جذوة كلماتك، ويزعزع ثقة الخلق بك، ويحيل عباراتك مفرداتٍ

جافةً حدُّها الآذانُ إلى أمدٍ، ثم مصيرُها النسيان إلى الأبد.

عرفتُ أناسًا الصَّمتُ سَمْتُهم، لا يتحدثون إلا لمامًا، وعندما يقتضي الأمر فحديثهم -غالبًا- إما شرح لمعانٍ تجلَّتْ في سلوكهم الأصيل، وإما تفصيل لمشاعر عميقة يعوزها البيان، أو تيسير لحقائق أشكل فهمُها على من عَميت بصائرهم. وكم وقف الناس مشدوهين مبهورين وهم يصغون إلى خُطبهم الصامتة، أي خطبِ لسان الحال. يا لله كم وكم بلغوا من عمق الحال والقلب، حتى إن كل من يجلس بين أيديهم ويستمع إليهم، ما أسهل أن يفهم عنهم ولو لم يكن ممن يعرف لغتهم، فيزداد لهم إكبارًا وتقديرًا. وعندما كنّا نحضر مجالسهم كنّا نقول: "شهِدنا، أدرَكْنا، تشرّبنا" لا "سمعنا، تعلّمنا، صدّقنا"... كانت كلماتهم حكمة. فإن لاذوا بالصمت شعرتَ بسهامٍ في أعماقك ترمي بها نظراتٌ منهم ترى الله عليها رقيبًا.

أجل، ما أكثرها من ينابيع وما أغزرها من عيون، تلك التي مررتُ بها! لكن -وا حسرتاه- لم أستطع ملء دلوي، فكان العبث والتسكع حرفتي. أليس شعث حالي دليلاً على تشرّدي وضياعي؟! إنني ما زلت حتى الآن أشعر بأثر صمت هؤلاء الربانيين الذين إنْ تحدّثوا فكلماتهم "حكمة"، وإن صمتوا فاضوا فكرًا وتأملاً.

ما أكثر ما سمعتُ حتى اليوم من خطب بليغة وكلمات فريدة. آذانُنا شبعَى، وعيونُنا جوعَى. ليتني أرى الإسلام سلوكًا يمشي على الأرض، لا كلمات تتردد فحسب. وا أسفاه، فالكلمات تشكو قائلها، والخطب تشكو خطيبها. أرجوكم لا تعتبوا عليّ، فإنني بينما أقول ما أقول أضع نفسي في هذه الكفّة نفسها؛ قل لي أين الخشوع في وجوه المصلين والقراء، ومن يقفون صفًّا واحدًا بين يدي الله تعالى؟! فلا معاني المثول بين يدي الله لها أثر على حالنا وسلوكنا، ولا الخشية تبدَّت في قسماتنا؛ ويكأنّ قلوبنا ميتة!

أجل، إنْ كنّا نبتغي سبيلاً للتأثير في النفوس فهو لسان "الحال"، أَنَسيتم أنّ أمة محمد ﷺ ما انتكست إلا يوم أن أخطأَتْ طريقَ لسان "الحال"؟! ألا ما أقلَّ رجالَ الحال اليوم!.. وإنّنا ما مُنينا بالهزيمة إلا بمحْل حلّ بنا في رجال الحال. أَكرَه أن أنفث باليأس في القلوب... وما أريد إلا التنويه بهذا الأصل: "العودة إلى الذات، والتجدّد، والوعي الدائم". وإنّي لأحسَب أنّ الموت خير من حياة الغافلين عن الجوهر والذات. ربّنا امنن علينا باليقظة والعودة إلى الذات... وإلا فأكرمنا بلقائك. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

د. صالح بن علي أبو عرّاد*

أبناؤنا وشعيرة
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لعل مما يلفت النظر في وقتنا الحاضر، أن كثيرًا من التربويين والدعاة الكرام، يتحدثون كثيرًا عن العديد من القضايا التربوية، ويتطرقون إليها بصورة مباشرة -أو غير مباشرة- في دروسهم ومواعظهم وأحاديثهم، إلا أنهم ينسون -أو يتناسون- الإشارة في ذلك كله إلى جانب تربوي هام في حياتنا؛ ألا وهو الجانب المعني بتربية النشء على مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وحتى أولئك الذين يزعمون أنهم خُبراء في تطوير الذات والتنمية البشرية، فإنهم قليلاً -إن لم يكن نادرًا- ما يقومون بتنظيم وتنفيذ برامج خاصة بتنمية شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى الصغار من أبناء المجتمع، ولا سيما أن هذا الجانب على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، ويستوجب ضرورة العناية والاهتمام بهذه النوعية من البرامج التربوية التي لا شك في ضرورتها وأهميتها، ودورها الفاعل في غرس هذا المبدأ الإيجابي، وتنميته في النفوس، حتى يمكن لها أن تتشربه، وأن تعمل به، وأن تُطبقه في واقعها وتُترجمه في كل جزئيةٍ من جزئيات الحياة.

ومن هنا فإنه ينبغي أن تتم تربية الأولاد على العناية والاهتمام بشعيرة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، واحترامها والحرص عليها على اعتبار أنها تُعد من أهم وأبرز مقومات التربية الإسلامية الشاملة التي لا يمكن أن تقوم تربية الفرد والمجتمع المسلم دون توافرها قولاً وعملاً، والتي لابد من الحرص على أدائها، واقعًا تطبيقيًّا على النحو الإيجابي الصحيح الذي يقوم في الأصل على مبدأ التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهو ما أكّده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:١-٣).

أما الكيفية التي يمكن أن تتم من خلالها التربية على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليست كيفيةً واحدةً معينة، ولكنها تختلف باختلاف الظروف والحالات، وتتنوع بتنوع الأزمنة والأمكنة، وتتباين بتباين الأسباب والمُسببات وإن كانت في ذلك كله تعتمد على عنصرين أساسيين هما "العلم النافع"، و"العمل الصالح"، فلا علم بلا عمل، ولا عمل بلا علم.

ولعل خير شعارٍ يُستدل به على تلك الكيفية، ما جاء على لسان شيخ الإسلام "ابن تيمية" -رحمه الله- الذي وصف كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في

عبارة شاملة جامعة شافية وافية قال فيها: "ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر بلا منكر".

ولعل مما يُلفت النظر في هذا الشأن، أنه ليس هناك عمر زمنيٌّ محددٌ لتربية أبناء المجتمع المسلم على هذه الشعيرة الإسلامية السامية، فهي في مراحلها الأولية وصورها المبدئية تبدأ معهم منذ نعومة أظفارهم، وتظل مُستمرةً معهم بشكل مُتدرج، فهُمْ يتشربونها شيئًا فشيئًا حتى تصبح فصلاً ثابتًا في نظام حياتهم وواقعهم الذي يعيشونه. ولا سيما أنها في حقيقتها تُعدّ صفة من الصفات الإيجابية المميزة للإنسان المؤمن، الملتزم بتعاليم الدين وتوجيهاته وهديه القويم في كل شأن من شؤون الحياة، وكل جزئية من جزئياتها، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَالمؤمنون وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(التوبة:٧١).

وفيما يلي إلماحة عن أبرز الانعكاسات التربوية التي يمكن أن تتحقق على شخصية الإنسان المسلم عندما تتم تربيته منذ بداية نشأته على التمسك بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحافظة عليها في واقع حياته، وهي انعكاسات رئيسة تتمثل فيما يلي:

• تحقق معنى "الخيرية الإنسانية" التي تجعل من الإنسان خيّرًا لا شرّيرًا، ومُحبًّا للخير وأهله، ومجتنبًا للشر وأهله، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أو الجماعة أو الأمة، وهو ما أخبر الله تعالى عنه في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠).

وهنا يلاحَظ قوة ارتباط تحقق مبدأ الخيريّة من خلال أداء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بها انطلاقًا من دائرة الإيمان الحقيقي بالله تعالى.

• تحقق صفة "الصلاح والإصلاح"، إذ إن التربية على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بها على الوجه الأكمل بين أفراد المجتمع، تُعدّ من دلالات الصلاح الاجتماعي الذي يؤدي إلى الاتصاف بصفات الصالحين، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:١١٤).

ومتى ما حصل ذلك الصلاح، تحقق أحد أبرز أهداف التربية الإسلامية العامة التي نعلم جميعًا أنها تسعى في مجملها إلى إيجاد الإنسان الصالح المُصلح في كل زمان ومكان.

• تحقق معنى "التمكين في الأرض"، وما يتبع ذلك التمكين من النصر والعزة والرُقي لمن يتحلى بهذه الشعيرة العظيمة، ويقوم بأدائها، ويتخلق بأخلاقها، ويتأدب بآدابها، ويتمسك بتعاليمها ومقتضياتها في مختلف شؤون حياته الدينية والدنيوية، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(الحج:٤١).

فمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، حصل له -بإذن الله تعالى- التمكين، وتحققت له العزة في الدين والدنيا، أما إذا لم يُرَبّ الإنسان في صغره على احترام شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعناية بها في مختلف شؤون الحياة، فلا شك أن حياته ستكون حياة ضائعة ومليئة بالمشكلات والمنغصات... ولا سيما أن فقدان هذه الشعيرة يؤدي بكل تأكيد إلى فقدان الأمن والأمان، وانعدام الصدق والأمانة، وانتشار الظلم والفساد... وبالتالي فإن تربية الإنسان تضطرب ولا تستقر، وحياة المجتمع ترتبك ولا تنتظم، وتفتقد إلى كثير من المقومات الحياتية التي لا غنى للإنسان عنها في أي زمان وكل مكان.

إذن يجب أن يكون لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصيبًا وافرًا من الاهتمامات التربوية والدعوية، ويجب أن تكون العناية به فعليةً لا قولية، ومنطلقة من الإدراك لحقيقة ما يترتب على وجود هذا المبدأ التربوي من المصالح والمنافع على المستويين الفردي والمجتمعي، ويجب أن يحرص الجميع على التعامل مع هذا المبدأ التربوي من منظور إيجابي، والله الهادي إلى سواء السبيل. ■

(*) كلية التربية، جامعة الملك خالد / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

د. طارق الصادق عبد السلام*

في العلم فنون لا حصر لها، وفي الصناعة صناعات تملأ الأرض.. وقدراتُك الاستيعابية محدودة، فإنك لا تستطيع أن تتقن كل علم ولا أن تلمَّ بكل صناعة. فعليك أن تتعلم ما يتفق وقابلياتِك فتفيد به نفسك وأمتك، وإلا ضاع عمرك وانقضت أيامك، ولم تحقق شيئًا ذا بال لك لأمتك.

الموازين

مفهـوم المجتمع الإسلامي المثالي

١

المجتمـع الإسلامي أو المجتمـع المسلم، هو الذي تتمثل فيه كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" كقاعدة أساس بكل مقتضياتها، إذ إنه من غير تمثّل هـذه القاعـدة ومقتضياتهـا فيـه، لا يكـون مسـلمًا. وبناء على ذلـك فإن هذه القاعدة تصبح المرتكز الأساسي لمنهجٍ كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيره، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة، كما أنها لا تكون حياةً إسـلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة، أو قامت على قاعدة أخرى معها، أو عدة قواعد أجنبية عنها.

مـن حيـث إن ثقافـة هـذا المجتمـع تكـون مرجعيتهـا إلـى تلـك القاعـدة دون اختـلاط بمرجعيّـات ثقافيـة أخـرى أيًّـا كانـت، وهـذا لا ينفي عملية الاحتـكاك الثقافي ولا الانفتاح والتفاعـل الثقافي مـع ثقافـات أخرى وأخْذ الملائم لهذه المرجعية، وذلك يتمثل في قول الرسـول الكريـم ﷺ: "الكلمـةُ الحِكْمَـةُ ضالـةُ المؤمـن فحيـث وجدهـا فهـو أحقُّ بهـا" (رواه الترمـذي). ولكـن لا يعنـي هـذا أخْـذ هذه السّـمات الثقافيـة وربطها بمرجعيـات مخالفة لتلك القاعدة، والتي هي قاعدة العبودية لله وحده في كل الأمور، وهي التي تمثلها وتكيّفها شهادةُ أن "لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي، كما تتمثل في الشعائر التعبدية وفي الشرائـع القانونية ونظم الحكم.

تسـود هـذه القاعـدة عمومًـا كلَّ النظـم الاجتماعيـة القائم عليهـا هذا المجتمـع، فليس

عبدًا لله وحده من لا يعتقد في وحدانية الله سبحانه وتنزيل هذه الوحدانية على حياته الاجتماعية كلها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۞ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾(النحل:٥١-٥٢)، وقال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(يوسف:٤٠). وعليه فالمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم، كما تتمثل في نظامهم الاجتماعي وتشريعاتهم، وأيُّما جانب تخلّف من هذه الجوانب يؤدي إلى تخلف الجوانب الأخرى.

والتصور الاعتقادي الإسلامي، هو التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الربّاني، والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه غيبِه وشهوده، ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها غيبِها وشهودها، ولحقيقة نفسه؛ أي لحقيقة الإنسان ذاته... ثم يكيّف على أساسه تعاملَه مع هذه الحقائق جميعًا. وعليه يصبح تعاملُه مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده، وتعامله مع الكون ونواميسه، ومع الأحياء وعواملها ومع أفراد الجنس البشري وتشكيلاته، تعاملاً يستمد أصوله من دين الله كما بلّغه رسول الله ﷺ تحقيقًا لعبوديته لله وحده في هذا التعامل وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كلّها[1].

والمجتمع المسلم أو المجتمع الإسلامي، لا ينشأ حتى تقوم جماعة من الناس تقرّر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد، والتصور، وفي العبادات، والشعائر، وفي النظام الاجتماعي، والشرائع اللاحقة له، ثم تأخذ في تنظيم حياتها وفقًا لهذه العبودية الخاصة. "فالمجتمع المسلم ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله -معه أو من دونه- إلى العبودية لله وحده بلا شريك، ثم تقرير هذه المجموعات أن تقيم

إن المجتمع المسلم يتعامل مع الواقع البشري بأسلوب نقدي بنائي معياري، فهو لا يلغي كل ما هو موجود، ولا يقبل بكل ما هو موجود، إنما منهجه قائم على هضم هذا الواقع البشري وإنشائه على منهجه القائم على التصور الاعتقادي الإسلامي.

نظامها الحياتي والاجتماعي على أساس هذه العبودية، وعندها يتم ميلاد مجتمع جديد مشتق من المجتمع القديم مواجه له بعقيدة جديدة ونظام للحياة جديد، يقوم على أساس هذه العقيدة وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"[2].

ولا يعني بحال تقرير جماعة من الناس أو انتقال هذه الجماعة، أن هذا البنيان الجديد أو البناء الاجتماعي لهذا المجتمع، قد نشأ عبر تطور حضاري أو ثقافي لهذه الجماعة، أو لتغيرات حدثت في نظامها الاجتماعي بصور تلقائية حتمية، وإنما يعني أن هذه الجماعة قد ارتضت ومن ثم انصاعت لرسالة السماء عبر الرسول محمد ﷺ، أو المحبين لهذه القواعد من بعده من حيث إيمانهم بها ودخولهم في هذا الدين، بمعنى أن المجتمع الإسلامي يستوعب في داخله كل داخل في هذا الدين عاملاً بمقتضياته على مر العصور سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو مجتمعات بأكملها، وهذا ما يشكل الطبيعة الدينامية لهذا المجتمع من حيث استيعاب الجماعات الجديدة وإستاتيكية من حيث قواعد الانتماء حيث إن المحدد للدخول في هذا المجتمع هو الانتماء لهذا الدين.

وعليه لا يُفهم الأمر على أنه مجتمع تقوم فيه العلاقات والكيانات على أساس من العرق أو اللغة أو أي من أشكال العلاقات الأخرى، بل يمكن القول أنه انتماء أيديولوجي قائم على معتقد واحد غير متعدد، وتصبح خصائصه مبنية على قوة الاعتقاد والتصور، وقوة البناء النفسي، وقوة التنظيم والبناء الاجتماعي النابعة من التصور الاعتقادي الإسلامي، أي أن الواقع البشري في هذا المجتمع يتشكل عبر هذا التصور الاعتقادي

hiramagazine.com

الإسلامي من حيث إن هذا الواقع هو الذي ينشئه هذا الدين نفسُه وفق منهجه، والذي يكون بالضرورة منطبقًا على الفطرة البشرية في سَوائها ومحققًا للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها، هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق ويعلم من خلق: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤).

وعلى هذا فالدين الإسلامي يواجه الواقع البشري الموجود ويزنه بميزانه -من حيث القواعد السالف ذكرها- فيقر منها ما يقر ويلغي منها ما يلغي ويعدل منها ما هو في حاجة إلى تعديل، وينشئ واقعًا كاملاً متكاملاً قائمًا على أصوله، أي إن الإسلام والمجتمع المسلم في تعامله مع الواقع البشري، يتعامل بأسلوب نقدي بنائي معياري، فهو لا يهدم ولا يلغي كل ما هو موجود، كما لا يقبل بكل ما هو موجود على عِلاّته، ولا ينتقي من هذا وذاك، إنما منهجه قائم على هضم هذا الواقع البشري وإنشائه على منهجه القائم على التصور الاعتقادي الإسلامي.

وهذا يدل على أن مصالح البشر هي المحدّد للواقع البشري في المجتمع المسلم، إذ إن هذا المجتمع القائم على العبودية الحقة لله تعالى يعي جيدًا قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الحشر:٧). مما يدل على أن شريعة الله تعالى تتضمن المصالح الكلية للبشر والتي تتفرع عنها كافة المصالح والحاجات الإنسانية الأخرى. وعليه فالمصالح الخارجة عليها إنما تدخل في مجال آخر مما يمكن إجماله بـ"الهوى"، والله تعالى يقول في ذلك: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ۞ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ۞ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾(النجم:٢٣-٢٥).

والمجتمع المسلم يقوم بناؤه الفلسفي على التصور الإسلامي الذي يقوم بدوره على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان، وأودعه قوانينَه التي يتحرك بها والتي تتناسب بها حركةُ أجزائه فيما بينها، كما تتسق بها حركته الكلية. وعليه فإن شريعته لتنظيم حياة البشر هي شريعة كونية، بمعنى أنها متصلة بناموس الكون العام ومتناسقة معه، ومن ثم فالالتزام بها ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم الفطرة المضمرة والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة، مدركًا ضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان[٣].

وعليه تكون روح الإسلام هي التي تسود هذا المجتمع، وهي التي تشكل الأساس الثقافي لهذا المجتمع، إذ إن هذا المجتمع وفي بدايات تكوينه الأولى، لم يكن يسير فقط تبعًا لقوانين الإسلام وتعاليمه، بل تبعًا للروح المبثوثة في هذه القوانين والتعاليم أيضًا، حيث كان الرسول ﷺ باعثَ هذه الروح ومركزَ إشعاعها، والتي تدل عليها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨). هذه هي الروح التي تتولد عن حب الله وحب الخير، وحب المسلمين بعضهم بعضًا في الله، هذا الحب الذي يكون بين الإنسان وربه هو الذي ينمي عبادة الإنسان بإخلاص وحرص على تقوية صلته به، وهو الذي يجعل للنظم وقعها الذاتي في نفس الإنسان حيث تكون لذة ومتعة هذا الإنسان في فعل الخيرات والإيثار، وهذه الروح هي التي تسود هذه التعاليم والنظم الإسلامية، وهي التي يمكن أن نعتبرها الإطار الإسلامي الكلي، والذي يجب أن تدور فيه كل الحاجات والقواعد السلوكية المنظمة لها داخل المجتمع الإسلامي، والتي تميز هذا المجتمع عما دونه من المجتمعات المختلفة من حيث تكوينه البنائي الداخلي، والذي يرتكز على تلك الأسس السالف ذكرها، والتي تسودها هذه الروح، والتي تزودها بالجانب النفسي الداعم لها.

وقد حوت وثيقة المدينة المحددات العامة لتنظيم المجتمع الإسلامي داخليًا من حيث تنظيم الروابط بين المسلمين بعضهم البعض، والتي كانت ترتكز على المؤاخاة كفلسفة روحية عميقة ترسخ معاني روح الإسلام التي تسود نظمه، كما أنها حوت تنظيم علاقاته الخارجية ووضعت الأسس النظرية وتكيفاتها العملية لقيام مثل هذه العلاقات بين المجتمع الإسلامي

hiramagazine.com

والمجتمعات الأخرى، وبين المسلمين وغير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى، وبين المسلمين وغير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي، ولا مجال هنا للخوض في معالجة أمر غير المسلمين داخل جسم المجتمع الإسلامي وإن كان يعنينا ما يجري عليهم من قواعد سلوكية يصوغها ويحتمها عليهم وجودهم داخل هذا المجتمع.

وعليه فإن المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسلم، مجتمع تسوده روح الإسلام وتعاليمه ونظمه، ويقوم على مبدأ العبودية الكاملة لله، وعلى هذا تقوم نظمه وبناءاته، على تلك الروح التي تُعَد الإطار الأشمل الذي يقوم عليه البناء الاجتماعي في هذا المجتمع.

والذي هو في صورته المثالية -أو المجتمع الذي استدمج كليًا تعاليم الإسلام ونظمه- يبدو وكأنه ذو إطار واحد وبشكل واحد، أو ما يمكن أن نطلق عليه إجمالاً "مفهوم الأمة"، وإن كان هذا لا ينفي أن هذا المجتمع لا سيما عند اتساع رقعة الإسلام، تكون به بعض الفروقات خصوصًا عند تعدد الجماعات المنتمية للإسلام والتي قد تشكل مجتمعات متعددة، ولكن هذه الفروقات لا تمس بصورة أو أخرى الأصول التي يرتكز عليها المجتمع الإسلامي في عمومه، وإن بدت مثل هذه الفروقات إنما تكون في تمثيل العام، أو في درجة الاستجابة الفعلية للصورة المثالية، أو في درجة تنزيل هذه الأصول على الواقع.

والذي يسعى إليه المجتمع المسلم وأفراده، هو تحقيق الصورة المثالية للإسلام، والتي هي قابلة للتطبيق الواقعي، وجهد المسلمين يتجه إلى تحقيقها في أرض الواقع. ■

(*) كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم / السودان.

الهوامش

(١) الإسلام، لسعيد حوى، ص:٥٧.

(٢) الإسلام، لسعيد حوى، ص:٥٩.

(٣) معالم في الطريق، لسيد قطب، ص:١٦.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الفرسان

هؤلاء السالكون،
فرسان سائحون،
وبالطريق هائمون...
قلوبهم بالإيمان متْرعة،
ونواصيهم بالفكر مشرقة...
مِنْ هُنا مَرُّوا،
وآثارًا لهم تركُوا،
والآفاقَ نَوَّروا،
والطمأنينةَ نشروا...!

* * *

أ.د. عرفان يلماز*

وحيد القرن يروي قصته

مرحبًا عزيزي الإنسان.. أرجو أن تُعيرني القليل من الوقت لأحدّثك عن نفسي أنا أيضًا كإخواني من الحيوانات الذين قاموا بتعريف أنفسهم إليك سابقًا. اسمي "وحيد القَرْن"، وتسمّونني أيضًا بـ"الكرْكَدَن"، وأنا أحد أضخم الحيوانات على سطح الأرض؛ حيث أحتل المرتبة الثالثة من حيث الحجم والوزن بعد الفيل وفرس النهر، وآتي بعد الزرافة والفيل مباشرة من حيث الطول. أَبرز علامةٍ تميّزني عن باقي الحيوانات هي "قَرْني" المُثبَّتْ على أنفي. أبلغ من الوزن طنَّين، ومن الطول ٤٢٠ سم،

كما يتراوح وزن بعض أنواعنا كوحيد القرن الأبيض (Ceratotherium Simum) ما بين ٣-٤ أطنان، وهم بذلك يفوقون وزن فرس النهر. ولكن على الرغم من وزني الثقيل وجسمي الكبير، أستطيع أن أَجْري -ولو لفترة قصيرة- بسرعة ٥٠ كم في الساعة.

وا أسفاه على بعضكم.. ليت شعري أيّ شيء تجدونه في قَرْني حتى تقتلونني للحصول عليه؟ هل هو الاعتقاد الذي ورثتموه من الطب الصيني القديم الذي يرى أن في قرني دواء شافيًا يقضي على كل العِلَل، أو قوة عظيمة وترفع من شأن كل المِلَل!؟ أم أنه أنسبُ قرنٍ لصناعة المجوهرات!؟ حَرامٌ عليكم.. تستحلّون قتلَ حيوان ضخم مثلي من أجل قرن صغير.. ثم تدفعون آلاف الدولارات من أجل خرافة لا تسمن ولا تغني من جوع! أَتتركون ما خلق الله لكم من أسباب للعلل والأمراض؟ أَتنسون ما أخرج لكم من الأحجار الكريمة لتصنعوا منها مجوهراتكم؟ إن قرني الذي تلهثون وراءه لم يكن حتى عَظْمًا، إنما هو مصنوع من "الكِيراتِين" الذي يتكوّن منه الشعر والأظفار!

السعي وراء قرني

لقد أشرفتُ مع إخواني الآخرين على الانقراض بسبب صيدكم الجائر للحصول على قروننا. هذا الصيد الجائر، أَجْبَرنا على العيش في مناطق ضيقة جدًّا وتحت الحماية والمراقبة. فأنواعنا الخمسة التي تحاول البقاء على قيد الحياة اليوم هي وحيد القرن (Rhinoceros Unicornis) الذي يعيش في الهند، ووحيد القرن (Rhinoceros Sondaicus) الذي يعيش في "جاوة"، وهما من الأنواع الباقية من فصيلة وأحادي القرن. أما الأخرى فتنتسب إلى فصيلة ذات القرنين، وهي وحيد القرن الأبيض (Ceratotherium Simum) ووحيد القرن الأسود (Diceros Bicornis) اللذان يعيشان في إفريقيا، ووحيد القرن السُّومطري (Dicerorhinus Sumatrensis) الذي يعيش في سومطرا. وإن في هذه الأنواع الثلاثة الأخيرة، يكون القرن الأمامي أطول من القرن الخلفي؛ إذ يبلغ القرن الأمامي عند وحيد القرن الأبيض ١٥٨ سم، وعند وحيد القرن الهندي أي وحيد القرن المُدَرَّع ٦٠ سم، وعند وحيد القرن الأسود ١٣٥ سم.

النظر الضعيف

نظرُنا نحن وحيدي القرن قصير جدًّا؛ حيث إنْ ابتعدتم عني بـ٣٠ مترًا فلا أستطيع رؤيتَكم أبدًا. لأن عينَيّ وُضعتْ بطريقة تختلف عن طريقة عيونكم؛ أي وُضعتْ عينٌ على يمين رأسي وعين على يساره، وهذا يعني أن ما تراه عيني اليمنى لا تراه اليسرى، وما تراه اليسرى لا تراه اليمنى، فكل عينٍ تتمتع بمنظر يختلف عن الآخر، لذلك يتعذّر عليّ -بادئ الأمر- رؤية الأشياء بأبعادها الثلاثة، لذا عندما ترى عيني الواحدة شيئًا، سرعان ما يقوم الدماغ بتسجليه لفترة قصيرة، فأدير رأسي بسرعة لأرى الشيء نفسه بعيني الأخرى قبل أن تنمحي الصورة الأولى، فتتداخل الصورتان في الدماغ فتشكّل الصورة بأبعادها الثلاثة، عندئذ أتمكّن من رؤية الأشياء بأبعادها مثلما ترونها أنتم.

شمٌّ قوي وسمعٌ حاد

أتمتع بحاسة شمّ وسمع قويّتين جدًّا.. لقد خُلِقتْ آذاني على شكل قمعٍ أستطيع من خلالها أن أسمع أضعف الأصوات.. وقد أتمكّن من الحصول على أفضل المعلومات عن محيطي، عن طريق حاسة الشم القوية لدي، لأن شعيرات الشم (Epitelin) الممتدة في فتحات أنفي الملتوية، أوسع بكثير من مركز الشم الموجود في دماغي. وبفضل هاتين الحاسّتَين القويتين (الشم والسمع) أكون قد عوّضتُ قِصرَ نظري. لذا، لا يسعني في هذا المقام، إلا أن أحمد الله القدير الذي أوجدني بهذه الجثة الكبيرة، وجهّزني بأفضل ما يناسبني من أعضاء.

أنتم البشر تضعونني بين الحيوانات الصاخبة، هذا صحيح، لأننا نقوم بعملية التواصل فيما بيننا عبر أصوات مختلفة، وهذه الميزة قلما توجد عند الحيوانات الأخرى. نقوم بإصدار الخوار الشبيه بخوار البَقَر أثناء رعاية صغارنا لتحديد تخوم المنطقة التي نعيش عليها، ونقوم بإصدار صوت يشبه زئير الأسد للدفاع عن أنفسنا، ونقوم بإصدار أنين يشبه الفُواق الخفيف لدعوة إناثنا.

إننا نتمتع بهيكل عظمي قوي قادر على حمل جثتنا الضخمة، كما أن أرجلنا الضخمة ذات القاعدة

hiramagazine.com

العريضة، مهيأة لحمل ما يتراوح بين ٣-٥ أطنان، ولو لم تكن أرجلي مزوَّدة بهذه القاعدة العريضة، لغُصْتُ في الأراض الطرية الليّنة ولَمَا استطعتُ التحرك أبدًا.

الغذاء النباتي

طعامنا كله من النبات، إذ نأكل الأوراق الخضراء والأعشاب الطويلة. فنحن مضطرون لاستهلاك الأوراق الليفية الطرية من النباتات التي تحتوي على كمية من الماء. وقد يبلغ وزن النباتات الخضراء هذه في معدة وحيد القرن الأبيض حوالي ٧٠-٧٥ كغ، مما يشكّل ٤-٥٪ من وزنه الإجمالي. ولتلبية طاقة جسمي، ولعملِ الجهاز العضمي بكفاءة أكبر، تم وضع بكتيريا في أمعائي لهضم السليلوز (مادة مكوِّنة للخلايا النباتية) بكثافة، الأمر الذي يمكّنني من الحصول على كمية كافية من غذاء النباتات الخضراء.

بعض أنواعنا لا يملك أسنان الطواحن، وبعضنا الآخر لا يملك القواطع، وإنما قامت مقام هذه القواطع الشفتان التي تم تصميمها بطريقة خاصة وبشكل يناسب كافة طرقِ تناولِ الأغذية. وبفضل امتداد عضلات الشفتين في اتجاهات مختلفة وتكوُّنها من الحُزَم القوية، وبفضل اللواقط الحساسة لجلدي؛ أتمكّن من انتقاء الأعشاب الرفيعة جدًّا واقتطافها بسهولة من بين المواد الأخرى. أما وحيد القرن الآسيوي فلا يملك أنيابًا وإنما أسنانًا قواطعَ فقط، بينما وحيد القرن السومطري له أنياب يستعملها في القتال لا في تناول الطعام. كما أن وحيد القرن الأبيض الإفريقي يستطيع بشفتيه العريضتين أن يقضم باقة كبيرة من العشب ويُنزلها دفعة واحدة إلى معدته. أما شفتيّ الحادتان أنا وحيد القرن الأسود فصُمِّمتْ بشكل يتيح لي التقاط أوراق الأشجار وشجيرات الأدغال والقليل من الأعشاب الجافة، ولكن أحبّ كثيرًا أكْلَ شجرة الأكاسيا والأوراق الحليبية. أما الشفة العليا لوحيد القرن الهندي فصُمِّمتْ بشكل خاص، مما يمكّنه من اقتطاف الأوراق العالية الطرية للأجَمات.

مُغْرَم بالماء

ألتمس العيش في المناطق القريبة من المياه، فأنا مُغْرَمٌ بها. أشرب ما يقارب عن ٨٠ لترًا في اليوم الواحد، وربما أصبر على العطش أربعة أيام أو خمسة. أقضي معظم أوقاتي بين المياه أو غامرًا جسمي في الأوحال، لأنه رغم سماكته فإن جلدي أَجْرد وليس عليه شعرٌ إلا في الأذنين وأطراف الذيل. وعلى الرغم من السماكة هذه، فأن الأوعية الدموية وُضعتْ بشكل قريب من سطح جلدي مما يجعلها تبين بسهولة، وهذا ما يدفع الذّباب إلى التهافت عليّ لتغرس خراطيمها في جلدي فتصل إلى عروق الدم البارزة وتتناول غذاءها بهناء وعافية. هذه الحالة تضيّقني طبعًا، لذا -بإلهام من ربي ورحمة منه- أعتصم بالوحْل، لأن الوحل يشكّل طبقة سميكة عند جفافه فأكون قد مَنعتُ الذباب من أن تلسعني وتزعجني على الدوام.

الحمْلُ والإنجاب

هذا وإن إناث وحيد القرن الهندي، تبدي أولى علامات البلوغ في الخامسة من عمرها، وتحمل حملها الأول في السادسة أو الثامنة، وتتراوح مدة حملها ما بين ١٦-١٧ شهرًا. تضع الإناث في البطن الواحد مولودًا واحدًا بسبب ضخامة جسمه ووزنه الذي يصل إلى ٦٥ كغ. يحتاج الحمل الثاني إلى ٢٢ شهرًا على الأقل بعد الولادة الأولى، لأننا نُرضع صغارنا مدة عامين على الأقل. تم إعداد مكوِّنات الحليب بما يتناسب مع احتياجات الصغير؛ فنسبة الماء فيه كنسبته في حليب أمهاتكم أنتم البشر، ولكن نسبة الدسم فيه أقل من حليبكم بـ١٥ ضعفًا، كما أن نسبة البروتينات في حليبنا تبلغ ثلاثة أضعاف حليب أمهاتكم.

hiramagazine.com

العيش الجماعي

لابد أن أنوه بإحساسٍ غير موجود عند معظم الحيوانات، وهو أن إناثنا على درجة عالية من الحياء قلما نجدها عند الثدييات الأخرى من الحيوانات. حيث تنأى عند اقتراب الولادة بنفسها إلى مكان بعيد عن الأنظار. وعندما تتم الولادة يقوم صغير وحيد القرن الأبيض باتباع أمه عن قربٍ ثلاثةَ أيام، ثم يتبطأ قليلاً ويواصل متابعتها بشكل أبعد من ذي قبل. في نوعنا الهندي تطمئن الأنثى على أحوال صغيرها -من خلال صوته ورائحته- على بعد ٨٠٠ متر رغم نظرها القصير.

يصل الذكر إلى مرحلة البلوغ في الثامنة من عمره، ولكنه لا يُقدِم على الزواج إلا بعد تأمين منطقته الخاصة به، وبعد سنتين يعلن للجميع أنه صاحب هذه المنطقة وأنه سيعيش فيها مع زوجه. وإذا تم القبول من قِبَل الجميع، عندها يقوم بالزواج.. إذ لا يُسمح في عاداتنا أن تتكوّن العائلة في أراضي الآخرين.

إن صغارنا تبدأ بتناول حشائش المراعي تحت رعاية الأمهات مدة عام أو عامين، وعند اقتراب الولادة الثانية تترك الأم صغيرها لبلوغه مبلغ الاعتماد على نفسه.

القناعة الشائعة أن وحيد القرن يعيش منفردًا، ولكن في بعض الأحيان نقوم بتكوين مجموعات يتراوح عددها من خمسة إلى عشرة مجموعة للعيش على مساحة تبلغ ١٠-٢٥ كيلومترًا مربعًا، ولكن إن لم توجد كثافة سكنية حولنا فتتسع هذه المساحة إلى ٥٠ كيلومترًا مربعًا. هذا وإننا نحدد بأصواتنا تخوم مناطقنا، حيث يعلن كل واحد منا بصوته الخاص به بأن: "هذه منطقتي، فلا يقربنَّ منها أحد". وبالتالي تتغير مساحة المنطقة التي أتخذها أنا وحيد القرن الأسود من ٣ إلى ٩٠ كيلومترًا مربعًا. إن الإناث تتسامح فيما بينها في تجاوز حدود بعضها البعض، ولكن الذكور فلا مكان للمسامحة أبدًا.

تكون الصراعات بين الذكور قاتلة في أغلب الأحيان، فنسبة الموت نتيجة الصراعات عندنا نحن وحيدي القرن الأسود مرتفعة أكثر من الأنواع الأخرى. فحسب الإحصائيات، يقع ٥٠٪ من الذكور و٣٠٪

من الإناث صريعًا نتيجة الضربات القاتلة أو الجروح العميقة، بسبب ذلك نعاني كثيرًا من الحفاظ على التوازن الطبيعي ومن ثم البقاء على قيد الحياة.. إن وحيد القرن الهندي مشاغب وكثيرُ القتال، حتى إنه في بعض الأحيان يهاجم الفيلة! ولكن وحيد القرن الأبيض رغم هدوئه وسكونه، يبدو بجسمه الضخم مروِّعًا وأشد هيبة. إن هذا النوع الأخير، يميّز نوعه من لونه ثم يقوم بالعيش على شكل مجموعات كبيرة من أجل رعاية وحماية صغاره.

وكما حدّثتُكم في البداية، فإن جنسي أوشك على الانقراض بسبب الصيد الجائر الذي يقوم به بعضكم للحصول على قرني. علمًا بأن نسبة عددي أنا وحيد القرن الأسود انخفضت ما بين عامي ١٩٧٠-١٩٩٠ من ١٠٠ ألف إلى ٣ آلاف، وإذا استمرت الحالة على هذا الشكل، فسننقرض كلنا ونغيب عن ميدان الحياة بالمرة. لذا، لا نملك إلا الدعاء إلى الله تعالى بأن يُلَيّن قلوب هؤلاء الصيادين القاسية، ليلجموا رغباتهم ويمتنعوا عن السعي وراء قرني. لا سبيل لخلاصنا من هذا الانقراض، إلا بإنسان يملك قلبًا رحيمًا يشفق على كل ما في الطبيعة من إنسان وحيوان ونبات وجماد... كما نسأل المولى العلي القدير أن يرزقنا رؤية هذا الإنسان المثالي الذي سيسعى إلى نشر الخير والسلام في كل أرجاء العالم، قبل انقراضنا وغيابنا عن سطح الكرة الأرضية ومفارقتنا الحياة. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

hiramagazine.com

خلف أحمد محمود أبو زيد*

البيمارستانات

يصف لنا ابن أبي أصيبعة، طرقَ مزاولة مهنة الطب في أول عهد إنشاء البيمارستانات الإسلامية فيقول: "إن الطب كان في أول عهده عن طريق الممارسة، ثم صار دراسة وامتحانًا وإجازة، حيث كان الطبيب في أول عهد الدولة الإسلامية، يكتفي لممارسة التطبيب بقراءة الطب على أي طبيب من النابهين في عصره، فإذا أنِس من نفسه القدرة على مزاولة الصَنعة، باشرها بدون قيد أو شرط"[1]. وقد يرجع الفضل في تنظيم صناعة التطبيب

وتقييدها بنظام خاص حرصًا على صحة المرضى، إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله "جعفر بن المعتضد" الذي تولي الخلافة سنة ٢٩٥هجرية، حيث فرض على من يريد مزاولة التطبيب تأدية امتحان للحصول على إجازة تخوّله هذا الحق بين الناس. والسبب الذي دعا الخليفةَ المقتدر إلى هذا التقييد، هو ما يرويه "سنان بن ثابت" رئيس الأطباء في عصره، حيث يقول: "لمّا كان في عام ٣١٩هـ-٩٣١م، اتصل بالمقتدر أن غلطًا جرى من بعض المطبّبين على رجل من العامة فمات الرجل، فأمر الخليفةُ أبا إبراهيم بن محمد بن أبي بطيحة المحتسب بمنع سائر المتطبّبين من التصرف إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة، وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة، فصاروا إلى سنان وامتحنهم، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه، وبلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة ونيف وستين رجلاً سوى من استغنى عن مهنته باشتهاره بالتقدم في صناعته ومن كان في خدمة السلطان"[٢]. وسار النظام بعد ذلك على هذا الطريق؛ متى أتم الطالب دروسه، يتقدم إلى رئيس الأطباء الذي يطلب إليه إجازته، لمعاناة صنعة مزاولة التطبيب. وكان الطالب يتقدم إليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الإجازة، وهذه الرسالة أشبه بما يسمى اليوم "أطروحة"، وتكون هذه الرسالة له أو لأحد مشاهير الأطباء المتقدمين أو المعاصرين، يكون قد أجاد دراستها فيمتحنه فيها ويسأله في كل ما يتعلق بما فيها من الفن، فإذا أحسن الإجابة أجازه الممتحن بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة، كما كان المحتسب يأخذ عليهم عهد أبقراط الذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلِّفهم ألاّ يعطوا أحدًا دواءً مرًّا ولا يركبوا له سمًّا، ولا يصفوا التمائم عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم وعند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار، وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال، مما يحتاج إليه في صناعة الطب"[٣].

عمارة البيمارستانات

لقد تطورت عمارة البيمارستانات خلال عصور الحضارة الإسلامية، حيث كان لها نظام وطابع معماري مميز يقوم على مجموعة من الشروط الضرورية التي يجب أن تتوافر في المكان الذي يبنى فيه البيمارستان، ويمكن أن نلخص هذه الشروط فيما يلي:

١-اختيار الموقع

اختيار الموقع الذي يبنى فيه البيمارستان، كان من الأمور الضرورية التي أولاها المسلمون اهتمامًا كبيرًا، حيث كان من الضروري أن يتوفر الهواء الصحي في المكان الذي يبنى فيه البيمارستان. ولقد ورد أن الرازي عندما أراد اختيار موقع للبيمارستان "العضدي"، وضع قِطَعًا من اللحم في أماكن مختلفة من بغداد، واختار الموقع الذي بقيت فيه قطعة اللحم سليمة أكثر من غيرها في المواقع الأخرى"[٤].

٢-مصدر المياه

حرص المسلمون على أن يكون البيمارستان قريبًا من الأنهار ومنابع الحياة، وذلك راجع إلى حرصهم الشديد على إيصال الماء الجاري إلى بيمارستاناتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فالمستشفي العضدي كان الماءُ يدخل إليه من دجله، والمستشفي النوري بحلب كان به بركتا ماء يأتي إليهما الماء الحلو من قناة حبلان، وأيضًا بيمارستان غرناطة له باحة داخلية وسطها حوض عميق لدخول الماء من عينين كل عين عبارة عن أسد جاث، بل في بعض الأحيان حرص المسلمون على إيصال المياه إلى جميع عنابر المرضى، كما كان الحال في بيمارستان مراكش، حيث أجريت فيه مياه كثيرة تدور على جميع العنابر، زيادة على أربع برَك في وسط أحداها رخام أبيض"[٥].

٣-مخطط البيمارستان

كما كان لكل بيمارستان مخطط يحتوي على:

١- أقسام خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء منفصلة عن الأولى.

٢- قاعات للمرضى حسب التخصصات، فهناك قاعات أو عنابر مخصصة للمرضى المصابين بالحمّى، والأخرى للأمراض العقلية والنفسية، وغيرها لمرضى الرمد.

hiramagazine.com

٣- عنابر خاصة للناقهين من المرضى إلى أن يتم شفاؤهم، يحكى لهم فيها الحكايات المسلّية.

٤- غرف للأطباء وبقية الإداريين.

٥- غُرف للأطباء للكشف على المرضى غير المنوَّمين (عيادات خارجية بلغة العصر).

٦- قاعة محاضرات يلقي فيها رئيس الأطباء دروسَه ويجتمع فيها مع تلاميذه.

٧- مكتبة تضم الكتب والمعارف الطبية.

٨- مطبخ لطبخ الأغذية الصحية، حيث كان الغذاء أحد طرق العلاج الرئيسية، وكذلك لتجهيز الأشربة وغيرها من المواد العلاجية.

٩- صيدلية لتحضير الأدوية، ومخازن، وقاعة لغسل الموتى، ومصلى مسجد، ومراحيض وحمامات.

بالإضافة إلى الباحات والأفنية والحدائق التي تحتوي على الأشجار والشمومات والمأكولات... والكثير من هذه البيمارستانات كانت تحتوي على سكن للعاملين فيها.

٤-تأثيث البيمارستان

عندما تنتهي عمارة البيمارستان، يقوم ناظره بتأثيثه بما يحتاج إليه لإيواء المرضى ومعالجتهم والعناية بهم. وقد يختلف الأثاث من بيمارستان لآخر من حيث الفخامة، ولكنها اتفقت جميعها على توفير سرير بكامل تجهيزاته لكل مريض، بالإضافة إلى الأدوات الطبية اللازمة لكل تخصص، وأدوات العقاقير وتحضير الأغذية للمرضى المنومين... فهذا الرحالة الأندلسي "ابن جبير" يصف البيمارستان الصلاحي البيمارستان العتيق في القاهرة بقوله: "ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرَّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي"[٦].

البيمارستانات الشهيرة

يقول الدكتور "جوزيف جار لند" في كتابه "قصة الطب": "وقد أسس العرب عددًا من المستشفيات الممتازة جعلوها مراكز لدراسة الطب لعلاج المرضى كأحدث المستشفيات، وقد بلغ عدد هذه المستشفيات أربعة وثلاثين موزعة بين أنحاء البلاد، وإن كان أهمها مستشفيات بغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة".[٧] ونعرض فيما يلي لأهم البيمارستانات التي كانت منتشرة في بلاد الإسلام خلال ذلك الزمان.

• **بمارستانات بلاد الشام:** تذكر المصادر التي أرّخت لتاريخ الطب في الدولة الإسلامية، أن أول مستشفى ثابت أقيم في بلاد الشام كان في دمشق، ويرجع تاريخ إقامته إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، ثم بيمارستان أنطاكية الذي بناه المختار بن الحسن بن بطلان الذي توفي عام ٤٥٥هـ، ثم البيمارستان الكبير النوري الذي شيده الملك العادل نور الدين محمود زنكي بدمشق.

وفي مدينة حلب بنى الملك العادل نور الدين محمود زنكي بيمارستانًا داخل باب أنطاكية وقف عليه الأموال لنفقات المرضى والأطباء. وفي القدس بنى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي بيمارستانًا كبيرًا قد عمل فيه من الأطباء. وبيمارستان عكّا.

• **البيمارستانات في شبه الجزيرة العربية:** كانت توجد في شبه الجزيرة العربية عددًا من البيمارستانات الهامة، من أشهرها بيمارستان مكة المكرمة، وكذلك بيمارستان المدينة المنورة.

• **البيمارستانات في بلاد العراق:** كان يوجد في العراق العديد من البيمارستانات الهامة والشهيرة التي لعبت دورًا بارزًا في مسيرة الحياة الطبية الإسلامية، ويأتي في مقدمة هذه البيمارستانات "بيمارستان بغداد الشهير" الذي بناه هارون الرشيد وأسماه "بيمارستان الرشيد"، وأيضًا بيمارستان أبي الحسن علي بن عيسى الجراح، وبيمارستان بدر غلام المعتضد بالله، أنشأه من ماله الخاص، وبيمارستان السيدة أم المقتدر التي توفيت عام ٣٢١هـ، وكذلك البيمارستان المقتدري والذي أشار ببنائه على الملك المقتدر بالله، سنان بن ثابت بن قرة، وأيضًا البيمارستان العضدي، أنشأه عضد الدولة البويهي عام ٧٣٢هـ وغيرها.

• **البيمارستانات في المغرب والأندلس:** لقد تعددت وانتشرت البيمارستانات في الأندلس حتى كثر عددها، حيث يذكر أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى، ومن بمارستانات الأندلس المشهورة؛ بيمارستان غرناطة الذي بدأ السلطان محمد الخامس ببنائه عام ٧٦٧هـ، وفي المغرب الأقصى كان يوجد بيمارستان مراكش الذي بناه المنصور أبو يوسف، وكان كل يوم جمعة بعد

hiramagazine.com

الصلاة، يذهب إلى المرضى ليسألهم عن أحوالهم، وقد دأب على هذه المحمدة حتى توفي عام ٥٩٥هـ، وفي تونس بيمارستان تونس.

• **البيمارستانات في مصر**: نذكر منها بيمارستان زقاق القناديل من أزقة فسطاط مصر، وبمارستانات المعافر في حي المعافر بالفسطاط قرب القرافية بناه الفتح بن خان في أيام الخليفة المتوكل على الله، والبيمارستان العتيق الذي أنشأه أحمد بن طولون داخل بعض الأبنية منها دور الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق، وشرَط ألاّ يعالَج فيه جندي ولا مملوك، وجعل له حمامين أحدهما للرجال والأخر للنساء، وأدخل ابن طولون في هذه البيمارستانات ضروبًا من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات آنذاك. وبلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا البيمارستان، أنه كان يتفقده بنفسه يومًا كل أسبوع، كان في الغالب يوم الجمعة، فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على سائر المرضى، ويعمل على مواساتهم وإدخال السرور عليهم. ولعل أشهر البيمارستانات في العصرين الأيوبي والمملوكي، ذلك التي أنشئت في عهد كلٍّ من صلاح الدين الأيوبي، والناصر قلاوون. فقد افتتح السلطان صلاح الدين الأيوبي ثلاثة بيمارستانات، الأول في إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير وهو البيمارستان العتيق، كما أمر بإعادة فتح بيمارستان الفسطاط القديم.

أما في العصر المملوكي، فمن أشهر البيمارستانات التي أنشئت في ذلك العهد وذاع صيتها في أنحاء مصر وخارجها، وحظيت برعاية سلاطين المماليك وأمرائهم، كان البيمارستان المنصوري الذي أنشأه الملك الناصر قلاوون.

وفي النهاية نقول ، هذا حال البيمارستانات في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في القرون الوسطي، بينما كانت مستشفيات أوربا وكْرًا للأمراض. ولم يكن لدى الأوربيين إنسانية نحو مرضاهم في تلك الآونة؛ فقد كان بعض ملوكهم يحرقون المجذومين ويعذبون المجانين، ولا يكترثون لصحة المسجونين وحياتهم. وقد انتقد "ماكس توردو" ما جاء في مستشفيات أوربا في القرون الوسطى، فأشار إلى مستشفى "أونيل دبو"

المعاصر، لمستشفيات المسلمين في ذلك الزمان فقال: "إنه كان مثالاً للفوضى والقذارة"، وتعترف الكاتبة "سيجر يد هونكه" بفضل المسلمين الطبي على الغرب بقولها: "إن كل مستشفى مع ما فيه من ترتيبات ومختبر وصيدلية ومستودع أدوية في أيامنا هذه، إنما هو في حقيقة الأمر نصب تذكارية للعبقرية الإسلامية"[٨]. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

الهوامش

[١] المستشفيات الإسلامية في العاصمة المصرية ، للدكتور حسين نصار، مجلة الهلال، عدد يونيو عام ٢٠٠٩، ص:٧١.

[٢] في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ، للدكتور عامر النجار، دار المعارف، مصر، عام ١٩٨٧، ص:٨٨-٨٩.

[٣] المستشفيات الإسلامية في العاصمة المصرية، للدكتور حسين نصار، مجلة الهلال، عدد يونيو عام ٢٠٠٩، ص:٧٢-٧٣.

[٤] الأوقاف والحضارة الطبية الإسلامية، للدكتور أحمد عوض عبد الرحمن، سلسلة قضايا إسلامية، العدد:١٣٦، ص:٦٨.

[٥] تاريخ البيمارستانات في الإسلام، للدكتور أحمد عيسى، دار الرائد العربي، بيروت، عام ١٩٨١، ص:٢٨١.

[٦] الأوقاف والحضارة الطبية الإسلامية، للدكتور أحمد عوض عبد الرحمن، سلسلة قضايا إسلامية، العدد:١٣٦، ص:٧٢.

[٧] أضواء على تاريخ الطب، للدكتور محمود السعيد الطنطاوي، سلسلة دراسات في الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد:١٨٣، ص:٥٥٨.

[٨] شمس الإسلام تسطع على الغرب ، لسيجريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون، وكمال الدسوقي، دار الجيل، بيروت، عام ١٩٩٣، ص:٣٣٤.

hiramagazine.com

د. مريم آيت أحمد*

الشباب
ومستقبل ثورة الربيع الثقافي العربي

١ الاستشراف عملية شاقة، تحفها مخاطر محاكمة الواقع ودراسة مشكلاته بغية تقويمها، وترصدها تبعات نقد الأنساق الثقافية والفكرية لبنية الفرد المعرفية، لإعادة صياغتها وفقًا لمتطلبات الحاضر وضرورات المستقبل، وفي إطار الثابت والمتغير من الدين. لكن يبقى الاستشراف فعلاً إيجابيًا يحرك دواعي النقد والمراجعة ورصدًا

متواصلاً للواقع، ربما يتحول إلى نقطة انطلاق باتجاه عملية التجديد والإصلاح، أي إصلاح الفضاء الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وتحقيق الوحدة والحرية والمساواة والعدل والمواطنة.

ومن هنا تتجلى إشكالية العودة إلى البحث في البيئة المنتجة للسؤال التاريخي: ما السبيل لاستشراف فاعلية الأمة في ظل غياب حس التمثل الواقعي للتحديات والقدرة على تمثل الممكنات تمثلاً واقعيًّا؟ هل يا ترى يعود ضعف فاعليتنا إلى خلل أساسي في تكوين الأمة ومكوناتها؟ أم أنه عرَضٌ سيزول مع الوقت وبزوال الأسباب؟ وهل الإصلاح نزعة تطهرية خلاصية ترمي التمركز حول الذات دفاعًا عن هوية مغتربة أو ماض مجيد؟ أم أنه مشاركة في صناعة العالم على قاعدة التواصل والاستيعاب والبناء تحقيقًا لشرط الفاعلية في التاريخ والشراكة في صنع المستقبل؟

إن من التساؤلات حول هذا الوضع، ما يقتضي الوقوفَ على الفرد المسلم ومحاولة تشخيصه بكامل مكوناته، ليس من ناحية العبادة فقط، فقد يكون الخلل واقعًا به في طرق تفعيل عقيدته وعبادته على أرض الواقع. وما تعانيه الأمة يعود في الأساس إلى فشل المشاريع النهضوية في بناء الإنسان الرسالي؛ فلو نظرنا إلى الفرد باعتباره نتاج الأمة والأمة غير سليمة وغير خالية من العيوب، وسايرنا كون حال تردي الفرد من تردي الأمة -شأنه في ذلك شأن البذرة التي تُغرس في أرض مجدبة تعرقل عناصرَ النماء الكامنة في البذرة- فإننا بذلك نوقّع على ترخيص يمنح الفرد في أمتنا عذرًا قويًّا في تراخيه وكسله وإحباطه، ويولد لديه حسًّا مفعمًا بالضعف والنقص والهوان، ويحول دون بحثه عن عناصر القوة الذاتية الكامنة فيه.

ولو نظرنا من جهة ثانية إلى المشكلة من زاوية فاعلية الفرد أهمَّ مكونات الأمة، فالأمة ما هي إلا جمع من الأفراد، فإن كان هذا الجمع صالحًا في ذاته، فاعلاً ونشطًا في محيطه، كانت الأمة في عطاء ونتاج وفاعلية البناء الحضاري المنشود. أما إن كان هذا الجمع من الأفراد

إن تنمية ثقافة الفاعلية الإرادية في زمن "ربيع الشباب العربي"، تحتاج إلى تفعيل "ثورة ربيع ثقافي" في مجتمعاتنا، ودمجها العضوي في مؤسساتنا التعليمية، كحاجة ملحة لأسئلة التمكين المعرفي لما بعد "الربيع العربي"، وذلك بما تحمله في طياتها من قيم معرفية وثقافية هامة.

حراء

معتلاً في ذاته متكلاً في نظرياته، مستهلكًا لخطابات غيره، متراخيًا في إنتاج معارفه وفق متطلبات محيطه، فهذا بلا شك سينعكس على واقع نتاج أمته الحضاري.

إن فاعلية الأمة لا يمكن أن تتحقق كما يشير المفكر الأستاذ محمد فتح الله كولن في كتابه "ونحن نبني حضارتنا"، إلا من خلال فاعلية إرادة خدمة أفرادها من الداخل، لأن الأمة ليست كائنا بذاتها، وإنما هي رمز لجمع من الأفراد كعنصر أساسي في معادلة البناء بقدراتهم الإيمانية والعلمية، واستعداداتهم النفسية والاستقرائية في المشاركة والمساهمة في مجريات المتغيرات العالمية، واستلهامهم الشعلة الحقيقية والطاقة المحركة للنهضة في كافة الميادين.

ومن ثم يمكن القول بأن الفرد نتاج البناء الروحي والقيمي والمعرفي والتربوي السليم في بيئته. والأمة بقيمها ومبادئها وبأهدافها واقع يجب أن يتلاحم مع قدرات الفرد، لتقديم فاعلية الدور الإرادي الإنجازي الحضاري لأمتنا، على قاعدة "كل منكم على ثغر من ثغور الإسلام، فلْيَحمِ كل منكم ثغره"، من منطلق الجاهزية المعرفية والعقلية والنفسية، والوحدة الاقتصادية والسياسية والإعلامية والتربوية.

والفاعلية الإنجازية لها متطلبات أساسية من أهمها: تقوية الدور الفاعلي الإرادي، بإيجاد حركة فاعلة وقوية بحصانتها المعرفية والمهاراتية، تشارك وتساهم بقوةٍ في دورة الإنجاز الحضاري، إنْ على مستوى مجتمعاتنا أو على المستوى العالمي. وهذا يتطلب إعادة النظر في الإصلاح التربوي، وإعداد كوادر ومؤهلات تستخرج المعارف وتطور المهارات، وهذا يتطلب أن يَخرج

hiramagazine.com

المثقف عن "أَنَاه" ومصالحها الضيقة، ويفكر بمستوى الأمة وتطلعاتها. فالمثقف لا يقاس بحجم المعلومات المتوفرة في ذهنه أو الأوسمة المعلقة على صدره، وإنما يقاس بمدى مساهمته الجادة في مشروع الأمة الحضاري وبمستوى التزامه بتطلعاتها وهمومها.

فرجل الاقتصاد والمال مثلاً، لم يمتلك تأثيره في المحيط الاجتماعي من وجود الثروة وحدها لديه، وإنما امتلك التأثير حينما حوّل إمكاناته المادية إلى مجموعة من الحقائق الاقتصادية والتجارية في المحيط الاجتماعي، وبالتالي مارس رجل الاقتصاد والثروة دوره وتأثيره في المجتمع عن طريق هذه الحقائق. وكذلك الأمر بالنسبة للسياسي والمفكر والمثقف والعالم... فينبغي ألا يكتفي الفرد في الأمة بنتاجه النظري، وإنما من الضروري أن يسند هذه الأنشطة بحقائق ثقافية علمية سياسية اقتصادية وتكنولوجية تعطي لهذه الأنشطة بُعد الديمومة والاستمرار. ففاعلية القول المجرد في التأثير ضعيفة، واكتفاء الفرد بذلك يجعله في الكثير من الأحيان خارج الحراك الحضاري للأمة المتجهة إلى التطوير والتقدم. ولذلك كان علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه؛ فهو بصفة عامة "قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف". فكم من طاقات وقوى لم تُستخدم لأننا لا نعرف كيف نُكتّلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها لأنها لم توجَّه نحو امتلاك حصانة الفاعلية. والتوجيه المقصود هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تُستخدَم في كل وقت، فالمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكوَّن من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية، وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود.

وهكذا، فإن غياب إستراتيجية واضحة في توجيه الطاقات الشابة، وعدم الاستثمار في التربية والبحث العلمي باعتبارهما قطاعًا إستراتيجيًّا، والشحّ في الإنفاق عليهما، عواملُ انعكست سلبًا على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للأمة الإسلامية، وكلها عوامل تبرز مستوى فشل المنظومة التربوية في تحقيق أحد أهم أهدافها، وهو إيجاد أفراد فعالين في تدخلاتهم. وقد أدى فشل سوء التدريب ونقص فعالية الأفراد، إلى الشعور بعدم الثقة بالنفس، وإلى السلبية في مواجهة التحديات، والشعور باليأس والإحباط لدى غالبية جيل شبابنا ممن نتواصل معهم سنويًّا من خلال فصول الجامعات. والفشل والإحباط قد يؤديان إلى ممارسات اجتماعية سلبية يضطر الفرد الالتجاءَ إليها، مثل الاتكالية والتحايل والغش والهروب عن الواقع من خلال تعاطي المخدرات والكحول، كما أن اليأس والإحباط قد يؤديان إلى التطرف الإيديولوجي والديني.

وقد أمعن مالك بن نبي في التنقيب حول مشكلات التخلف المزمنة، متجاوزًا الظواهر السطحية إلى الجذور الجيولوجية التراكمية المتغلغلة في الأعماق، وباحثًا عن السنن والقوانين الكفيلة بتحول الشعوب من حالة العجز إلى القدرة والفعالية، ومن مشكلة الاستعمار إلى مرض القابلية للاستعمار، ومن حالة تكديس الأشياء إلى حالة البناء والمشاركة والإنجاز، ومن المطالبة بالحقوق إلى القيام بالواجب أولاً، والانتقال من عالم الأشياء والأشخاص إلى عالم الأفكار، التي بها نبدأ بحل مشكلة التخلف، ويجب أن نصل إلى قناعة حتمية بأن مفاتيح حل المشكلات هي في الذات لا عند الآخر.

إن استرداد دور فاعلية شباب الأمة رهين بتفعيل ثقافة الامتياز والإنجاز، دون تضييع الوقت في الرد على المنافسين، والخوض في جدالات الصعاب التي تحيط بالمشروع الحضاري المراد إنجازه، والسر كل السر في المضي قدمًا نحو تحقيق النجاح، والرهان ليس في الرد على معيقات النجاح، وإنما في التميز بالأداء والتفوق في العطاء والإنجاز المعرفي، ولعل الفائزين في المنافسة الحضارية هم مَنْ يسعون لتحقيق أعلى معدلات وأرقى مستويات الأداء في مجالات الحضارة المختلفة، وبخاصة مجالات الإنتاج والاقتصاد والثقافة. وفي زمن الثورات العربية فإنّ طبيعة المخاطر المهدّدة

hiramagazine.com

للثقافة العربية، لا تتعلق بعمليات العولمة وتداعياتها الثقافية والسياسية والاجتماعية فقط، بقدر ما تتعلق بمدى قدرتها على تجاوز أزمتها المعرفية، خاصة ما يتعلق منها بالتنمية الشاملة للقدرات، وتوسيع إطار الديمقراطية، وتعزيز مؤسسات المجتمع المدني، وتفعيل قيم الحوار والتعددية، وقبول الرأي والرأي الآخر، وتوفير حرية البحث العلمي، وإنشاء منظومة تربوية تقوم على تأهيل وإعداد كوادر تعليم عالية المهارات، واحترام عقل المتلقي، وتوفير وسائل تمكينه من الاستيعاب الناقد للمعلومات والآراء وإبداع الأفكار، واختصار الزمن في مناهجنا التعليمية، وإطلاق العنان للطاقات الشابة نحو نهضة علمية في كل المجالات لكي تفكر وتبدع وتعزز ثقتها بإمكاناتها. وذلك عن طريق إنشاء مراكز للبحوث الإستراتيجية العلمية والتقنية المتخصصة، ومراصد فلكية وأرضية، ومؤسسات للطاقة مجهزة بأرفع التجهيزات العالمية، ومراكز الدراسات المستقبلية في العلوم الإنسانية، ويكون من مهام هذه المراكز استقطاب الكفاءات المسلمة حول العالم.

إن نظرة مقارنة للقواسم المشتركة بين الثقافات الفاعلة التي ولدت حضارات شامخة وعهود أنوار ذهبية عبر التاريخ، تظهر أن الثقافة الفاعلة تتميز بسمتين أساسيتين: الأولى: القدرة على توليد تضامن داخلي يتمثل بتعاون أفراد المجتمع الناهض وتلاحم وتكامل جهودهم. والثانية: القدرة على تحرير الطاقة الإنجازية المبدعة للفرد والجماعة، وبالتالي تمكينهم من تطوير أدواتهم وزيادة فاعليتهم، وهذا يقودنا إلى تحديد المساهمة الرئيسة للمثقف في تأسيس ثقافة الفاعلية، وإحداث نهضة إصلاحية على كافة المستويات، وذلك بالدخول في عملية نقدية للثقافة السائدة (الاتكالية، الانهزامية، وفقدان الثقة بالذات، الغش، ثقافة الاستهلاك، ثقافة المؤامرة، الإحباط واليأس، الفرقة والتجزئة، تقديس الذات، ونفي الآخر...) بغية تخليصها من نماذج سلوكية وانحرافات تصوّرية تحول بينها وبين تحقيق قيمها ومثلها العليا على أرض الواقع، بالإضافة إلى العمل على تطوير نماذج عملية تطبيقية تسهل مهمة تنزيل القيم الإسلامية الخالدة على أرض الواقع، وتحويلها إلى مؤسسات مجتمعية وممارسات عملية.

ومن المؤكد أن تنمية ثقافة الفاعلية الإرادية في زمن "ربيع الشباب العربي"، تحتاج إلى تفعيل "ثورة ربيع ثقافي" في مجتمعاتنا، ودمجها العضوي في مؤسساتنا التعليمية ومجتمعاتنا، كحاجة ملحة لأسئلة التمكين المعرفي لما بعد "الربيع العربي"، وذلك بما تحمله في طياتها من قيم معرفية وثقافية هامة. إنها القيم المتصلة بالماضي والحاضر والمستقبل، إنها الروح الإرادية والمنهج النقدي لبناء الذات وفق آليات وأنساق سلوكية وتصورية ونفسية تستفز حالة ركوننا إلى المسلّمات الموجودة، ويحثنا الاتكالي على المخلّص الذي سيشرف على مراجعتها وإعادة النظر فيها. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

المراجع

(١) التربية وتفعيل الدور الحضاري، لغياث بوفلجة، كلية العلوم الاجتماعية الجزائر.

(٢) إعادة تشكيل العقل المسلم (سلسة كتب الأمة ٤)، لعماد الدين خليل.

(٣) العقل العربي وإعادة التشكيل (سلسلة كتب الأمة ٣٥)، لعبد الرحمن الطريري، تقديم عمر عبيدة حسنة.

(٤) أزمة العقل المسلم (سلسلة المنهجية الإسلامية ١)، لعبد الحميد أبو سليمان، ط٣، المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للفكر الإسلامي، ١٩٩٤.

(٥) مشاريع الإشهاد الحضاري، لعبد المجيد عمر النجار، ج/٣.

(٦) شروط النهضة، لمالك بن نبي.

(٧) وجهة العالم الإسلامي، لمالك بن نبي، ترجمة: عبد الصابور شاهين، دار الفكر، دمشق.

(٨) العولمة والتحدي، لمحمد محفوظ، مجلة التجديد العربي.

(٩) تجديد الفكر الديني في الإسلام، لمحمد إقبال، ترجمة: عباس محمود، القاهرة، ١٩٦٨.

(١٠) المثقف والنهضة، لؤي صافي، مجلة الاجتهاد، عدد:٥٢، سنة:٢٠٠٢.

hiramagazine.com

محمد كول كونول*

تناغم المعنى والمبنى في الهندسة المعمارية

إطلالة على الجامع الأخضر

كانت ثقافة المدينة في الدولة العثمانية تولي اهتمامًا كبيرًا لكل جزء من الطبيعة؛ شجرةً كانت أم ووردةً أم نبتةً أم خَضارًا... ويظهر بجلاء هذا الاهتمامُ في "الجامع الأخضر" الذي أمر ببنائه السلطان العثماني محمد شَلَبي عام ١٤٢٠ بمدينة بورصة الخضراء، ثم أمر بنقش زخارفه بعده السلطان مراد الثاني عام ١٤٢٤.. فليس ثمة مكان أنسب للسكينة والراحة من هذا الجامع الفريد ببنائه وطبيعته؛ فمن زقزقة العصافير إلى خرير المياه الهادئ إلى حفيف أوراق الأشجار التي تنساب نغماتٍ على نافورة الميضأة الرخامية، ينشأ جو تبتهج به الروح وتنجذب إليه العقول والألباب.

إنه الجامع الأخضر الذي يلامس المشاعر والأحاسيس في كل موسم جديد. تنساب من بين

الأوراق الكثيفة وقتَ الأصيل حزمُ أشعة الشمس الدافئة، لتحوّل الباحة والجناح الغربي من الجامع إلى خيمة تبعث الراحة والطمأنينة في قلوب ضيوفها الزائرين... يلعب الأطفال ويمرحون على عشبها، ويرتاح الشيوخ تحت أشجارها الوارفة... وإذا ما حلّ موسم الخريف، تتوشّح هذه الباحة اللون الأصفر، لتعرض لضيوفها محاسن الطبيعة بأبهى صورها.

يقول الأديب التركي "أحمد حمدي طان بينار": "الجامع الأخضر بفنه المعماري البديع، هو دمجٌ بين خضرة الوديان الخلابة وزرقة السماء الأخّاذة"، أما الشاعر الفرنسي "بِيار لوتي" فيفصح عن أحاسيسه فيقول: "أثناء دخولي الجامع أجد نسمات الدفء تلامس وجهي، ثم أشعر وكأن الضوء الخافت اللطيف في الممر يفسح لي الطريق ويبيّنه، وفي حال دخولي العالم الداخلي تتحول هذه المشاعر إلى سكينة تسكن شغاف قلبي".

تصاميم الواجهة الشمالية البديعة للجامع، تستقبل زوارها بحفاوة كبيرة ولا تدعهم يلِجون الجامع إلا بعد أن تقدّم لهم باقة أزهار مزخرفة تفوح منها رائحة تاريخ مجيد. لقد اعتنى المعماري "الحاج عيواض باشا" بتصاميم هذه الواجهة وزخرفها عناية خاصة، وكأنه أراد بذلك إدخال الزائر إلى الجامع بعد سياحة وجيزة في عالم التجريد والمعنى.

يتكون الجامع من طابقين.. عندما ندخل إلى الرواق نرى أربع نوافذ تحتية؛ اثنتان منها على اليمين والأخرى على اليسار، ويتوسط كل نافذتين من هذه النوافذ محراب خارجي أي صيفي. كما يوجد في القسم العلوي من الجامع، أربع شرفات اثنتان منها صناعية دون منْفَذ هوائي. إن هذه الواجهة بهندستها البديعة وخطوطها الكوفية المتشابكة المنحوتة، توحي بقصر متميز لا مثيل له. ومن الأمور التي تجلب الأنظار أيضًا التجاويف القريبة من السطح، والتي ربما تؤدي إلى اعتقادها خطأ معماريًّا، لا، بل إنها حُفرتْ بقصدٍ لإيواء الحَمام والطيور. ولعل هذا دليل على الشفقة الإلهية التي وُضعت في قلوب أجدادنا الأمجاد.

يتنقّل المرء بين جماليات هذه الواجهة ليستقر بصره في نهاية الأمر على الباب المتوَّج المنتصب أمامه بمهابة؛ يرى زخارف أركانه المنحوتة بسعف النخل والزخارف البيزنطية المُحَلْزَنة المتشابكة، ويرى كذلك زخارف حافّتَيه المنقوشة على الرخام والحجر الأخضر. إن هذا الجامع فعلاً، من أروع التصاميم التي شهدتها العمارة الإسلامية في العالم الإسلامي.

إن كتابات الجامع مع اسمه منقوشة على الباب المتوَّج بطريقة رائعة، يقول الرحالة التركي "أَوْلِيا شَلَبي" عن هذه النقوش: "إن الباب القِبلي مزخرف يمنةً ويسرةً بنقوش بديعة تمتد حتى الطابق العلوي، وبكتابات جذابة لا يستطيع أمهر الخطاطين خطّها حتى على الورق ولو بأحسن ريشة، ولكن الفنان الذي أتقن النقش على الرخام بالإزميل، استطاع خلال ثلاث سنوات أن يقدم فنه بأرقى الصور". وإن الكتابات التي تحيط بالباب، هي آية قرآنية نُقشتْ في الأعلى، وأحاديث نبوية نُقشتْ على جانبي الباب.

مآذن الجامع الأسطوانية الجذوع، لا تعود إلى عهد بناء الجامع؛ فمآذنه الأولى -كما أخبرنا الرحالة أوليا شلبي- التي كانت مزينة بخزف صيني أخضر، انهارت إثر زلزال وقع عام ١٨٥٥م، إلا أن مآذنه الحالية تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر.

الماضي والحلم والحقيقة

بعد اجتياز الباب الخشبي الذي يبدو عليه فن نحت الخشب بأروع صوره ندخل الجامع... فأول ما نراه في المدخل، هما الإيوانان على اليمين وعلى اليسار، والتي نصعد عبر كلٍّ منهما إلى الطابق العلوي. إن النور الخافت فيهما يساعد الزائر على تبيّن طريقه، وبالتالي على إحساسه بالأبعاد الثلاثة للمكان. وما إن نجتز الإيوان ونصل إلى المركز، حتى نجد أنفسنا فجأة وسط فسحة واسعة مستنيرة، وهنا يعلق نظرنا بالميضأة الرخامية تلقائيًّا... يقال إن صوت الماء الذي يصدر من هذه الميضأة، يمنع وصول أصوات المتكلّمين في المحفل العلوي إلى الطابق الأرضي.

hiramagazine.com

تم وضْع مخطط الجامع الأخضر على شكل "T" المعكوس، وهذا الشكل كان منتشرًا ومزدهرًا في مدينة بورصة في تلك الآونة، حيث سماه أهل المدينة بـ"الشكل المجنح"، علمًا بأنه مستَلْهَم من الفن المعماري السلجوقي. إن معظم الجوامع في بورصة، مسقوفة بقبتين رئيسيتين متعاقبتين باتجاه المحراب، وتتصل هاتان القُبتان بقنطرة مقوّسة جميلة. أما حجر الزاوية المذهّبة الموجودة في وسط القنطرة الكبيرة، فتعدّ أهم عنصر في ربط القبة بالقنطرة. إن النافذة الثمانية الأضلاع أعلى القبة الأولى، تعكس أشعة الشمس على الجدران الداخلية بشكل نقاط متلونة. أما الإيوانات الجانبية التي يُصعد إليها عبر درجة واحدة والتي تشرح صدر الزائر بجوها الهادئ اللطيف، تزيد على المساحة الداخلية فسحة وَسَعَة روحية، تم زخرفة هذه الإيوانات بشكل مسدّس بالخزف الأخضر الصيني المذهّب، ثم ملئت الفراغات بين الخزف بمثلثات فيروزية لكي تبدو وكأنها "ختم سلمان". وكما هو الحال في الجوامع الأخرى لمدينة بورصة، فإن هذه الإيوانات خُصّصت لمجالس الدروس أو مجالس الاستشارة أكثر من تخصيصها للصلاة.

ونحن غارقون في التأملات في عالم الزخارف والتصاميم داخل الجامع، يشد نظرنا فجأة محافل المؤذنين والمحفل السلطاني الذي يعلوها. زُينتْ جدران محافل المؤذنين بالخزف الأخضر الداكن السداسي الشكل، أما سقفها فزُين بالخزف الأخضر، والداكن الأزرق، والأصفر، وفي بعض الأماكن بالخزف الأحمر.

ولرؤية المحفل السلطاني ينبغي الصعود إلى الطابق العلوي، لذا نعود إلى المدخل، فنرى في هذا الممر الأعمدةَ البيزنطية ورؤوسَها، ثم يظهر أمامنا باب صغير فيه سلّم حلزوني عمودي ضيق، فلا يمكننا إلا أن نتسلّق عليه لنصل إلى المحفل السلطاني. وخلال السير نحو المحفل، نرى على اليمين واليسار غرفَ الديوان الأربع المنفتحة على الداخل والخارج، تبدو وكأن هذه الغرَف المربوطة بالممرات الضيقة، ترخي على هذا القسم من الجامع شيئًا من الغموض. ومما يشدّ أنظارنا هنا، هي الخزفُ والتنانير والجدران والمحراب والأبواب الخشبية المزخرفة. وأما المحفل السلطاني الذي يصلي فيه السلطان، فنرى أشكال نجوم منحوتة على جدرانه وسقفه لمحاكاة السماء الصافية في الليل. هذا وقد صُممتْ واجهة المحفل بطريقة تتيح للسلطان رؤية قسم كبير من أرض الجامع.

النور المتدفق من السماء

إن القسم الذي أقيم عليه المنبر والمحراب -وهو القسم لأداء الصلاة- يرتفع عن أرضية الجامع بثمانية وتسعين (٩٨) سنتمترًا، كما يبلغ علوّ الجدران هنا ثلاثة أمتار ونصف (٣,٥)، وهي مزخرفة بالخزف الأزرق الداكن ذي الخطوط البيضاء. وقد نُقش على جهة اليسار من المحراب بيت شعر فارسي يلخّص فكرة إنشاء الجامع، مشيرًا إلى انقضاء أيام المحن والمصائب فيقول: "يظن

hiramagazine.com

الظالم أنْ بوضْع أغلال الظلم في أعناقنا قد ظلَمنا، ليته يعلم أن هذه الأغلال قد رُفعتْ عنّا منذ زمن بعيد ووُضعتْ في عنقه هو". وقد نُقشت لوحتان دائريّتان على النافذة اليمنى واليسرى كُتبتْ فيهما سورة النبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۞ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۞ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾. ولا شك أن نقش هذه السورة مع البيت الشعري، هو تذكرة للإنسان بحقيقة البعث بعد الموت، وإرشاده إلى الخير والصلاح.

يظل الإنسان مشدوهًا أمام تصاميم هذا الصرح وتزييناته البديعة... فأشعة الشمس المتسللة على الخزف، تضفي على عالم الزخارف المذهّبة ألقًا ولمَعانًا فريدًا، تشعر وكأن كل قطعة من الجامع تُنشد قصيدتها، أو تسبّح ربها وتدعوه بلسان حالها، لكن بصوت جماعي موحّد، يقول الأديب التركي "أحمد حمدي طان بينار": "الجدار والقبة والمحراب والخزف... كلها تدعو وتسبح بحلّتها الخضراء".

ولا يفوتنا في هذا المقام، أن نذكر محراب الجامع الذي يعدّ آية في الجمال؛ حيث نرى على جزء كبير منه أجمل فنون الخط الكوفي والثلث، ثم نرى إطارًا داخليًّا منقوشًا بالأزهار، وتاجًا مزخرفًا بأزهار الزنبق، وأنماطًا هندسية بديعة بأبهى صورها وأشكالها. ثم لفظَ الجلالة "الله" المنحوت داخل المحراب بمهارة... وكأن ذلك كله هو تذكرة للإنسان بعلاقته الوثيقة بربه، وأنّ فلاحه لا يتأتى إلا بالتوجه إليه والتمسك بحبله. والحق يقال إن لهذا المحراب صورة ساحرة خاصة به، فكأن أَمْهر الأيادي قامت بنقشه خطًّا خطًّا ونسجته خيطًا خيطًا، في مكان سريّ في الكون، ثم نُفخت فيه الحياة ووُضع على الحائط القِبلي ليزيد على جمال الجامع جمالاً.

يبلغ ارتفاع هذا المحراب الجميل عشرة أمتار وسبعة وستين سنتمترًا (١٠,٦٧)، وعرضه ستة (٦) أمتار، ليرتفع بشكل منتظم حتى حافة القبة. وكأنه ارتفع ليجمع النور المتدفق على القبة، ثم يرسله بطريقة معيّنة إلى الأسفل لينتشر هذا النور كخط كهربائي إلى الأطراف... يمرّ على الخطوط المنقوشة فوق النوافذ ثم يواصل طريقه على زخارف خزف جدران الإيوان، ثم

يعمّ كل جنبات الجامع، ومن هنا يُطلق فيوضاته إلى الحديقة الغناء ثم إلى أرجاء المدينة كلها.

ومع أن الجامع يبدو من الخارج بسيطًا متواضعًا، إلا أن شهرته اكتسبها من زخارفه ونقوشه الداخلية البديعة. ولقد عمِل أكبر وأشهر فناني ذلك العصر لكي يقدّموا الذوق الفني الرفيع في العمارة الإسلامية. فهنا نجد بجلاء امتزاج قدرة الفنان المعماري مع رقة الفنان التشكيلي، بل حتى مع العالِم والشاعر في تشييد هذا الصرح الأخضر السامق بأسمى صوره.

يقول الرحالة "أوليا شلبي": "أهل المدينة يقولون أنْ لا مثيل لهذا الجامع في بورصة، والسياح الأجانب يقولون أنْ لا مثيل لهذا الجامع في العالم". ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

hiramagazine.com

قضايا فكرية

د. إسحاق السعدي*

مفهوم الفكر الإسلامي وصلته بالعقل والوحي

ينطوي مفهوم الفكر على شيء من الغموض، لأنه استُعمل في معانٍ متنوعة -بل ومختلفة- تراكمت بمرور الزمن حتى أصبح إطلاقه دون تحديدٍ موقِعًا لِلّبس، وكذلك مسمى الفكر الإسلامي، ولا سيما أن هناك استعمالات عدة له منها ما وسع دائرة الفكر الإسلامي، حتى أدخِلت فيه الفلسفات الغريبة عن الإسلام والتيارات المنحرفة عن صراطه المستقيم، لأن تلك الفلسفات والتيارات، ذات أصول هندية ومجوسية وثقافات يهودية ونصرانية، مثل الغنوصية والهرمسية ونحوهما... ثم يحسب ذلك على الفكر الإسلامي.

ولا يخفى ما تهدف إليه مثل هذه الاستعمالات للفكر الإسلامي، من إيحاءات بأن الإسلام وفكره ملفّق من تلك الأصول الفلسفية والثقافية الأجنبية، وأنه ثمرة طبيعية للتراث اليهودي دون أدنى احترام للمنهج العلمي في النظر والبحث والمقارنة. لذلك ولكون الفكر بعامة والفكر الإسلامي بخاصة له أصالته ووجوده في المصادر العربية الإسلامية، فإنه ينبغي تأصيل هذا

اللفظ في اللغة والاصطلاح، وتجليته كمفهوم وصولاً إلى تحديده كمصطلح في العصر الراهن.

وسيجري المقال في النقطتين الآتيتين: المدلول العام للفكر، ومفهوم الفكر الإسلامي.

المدلول العام للفكر

أ–المعنى اللغوي: فَكَّرَ (بالتشديد) يُفَكِّرُ تفكيرًا، ويقال: فَكَرَ (بالتخفيف) يَفكُرُ فِكرًا أو فَكرًا على وزن: ضَرَبَ يَضرِبُ ضربًا، ويقال: أفكَرُ في الأمر: فَكَرَ فيه فهو مُفْكِر، ويقال: فَكَّرَ في الأمر مبالغة في فَكَرَ، وهو أشيع في الاستعمال منه من فَكَرَ، ويقال: لي في الأمر فِكرٌ: أي نظر ورويّة، ويقال: ليس لي في هذا الأمر فَكرٌ: أي لا أحتاج إليه ولا أبالي به.

والفِكرَة: من الفِكر، وهي الصورة الذهنية لأمر ما، وجمعها فِكَرٌ. وقيل: الفِكرُ مقلوبٌ عن الفرك، لكن يستعمل الفِكرُ في الأمور المعنوية وهو فركُ الأمور وبحثها للوصول إلى حقيقتها. وجاء عند ابن فارس: "فكَرَ: الفاء والكاف والراء، تردُّد القلب في الشيء، يقال: تفكَّر: إذا رَدَّدَ قلبه معتبرًا، ورجل فِكِّيرٌ: كثير الفكر".

وقد وردت مادة (فَكَرَ) في القرآن الكريم في نحو عشرين موضعًا، ولكنها بصيغة الفعل ولم ترد بصيغة الإسم أو المصدر، قال تعالى:﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾(المدثر:١٨)، وقال تعالى:﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾(الأنعام٥٠)، وقال تعالى:﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١). ففي الآية الأولى وردت بصيغة الماضي "فَكَّر"، وفي الثانية وردت بصيغة المضارع المخاطب "تتفكرون"، وفي الثالثة بصيغة المضارع الغائب "يتفكرون".

وعلى الرغم من كونها وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر (فِكر)، إلا أن الفعل في اللغة العربية يدل على الحدث ذاته، وعلى من قام به وهو هنا المفكر. وقد انتزع بعض الباحثين من ذلك أن الله ﷻ أبان ولفت أنظار عباده إلى أن هذا العمل الذهني مرتبط بذات، وأنه لا يكون فيما لا طائل من ورائه.

ب–المفهوم الاصطلاحي للفكر: عُرِّفَ الفكر بتعريفات كثيرة منها: "إعمال الخاطر في الشيء"، وإعمال العقل

الفكر الإسلامي، هو كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث الرسول ﷺ إلى اليوم، في المعارف الكونية المتصلة بالله ﷻ والعالَم والإنسان الذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكًا.

حراء

في الشيء، وترتيب ما يُعلم ليصل به إلى مجهول"، "وإعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول"، و"قوة مُطرقة للعلم إلى معلوم"، و"جولان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يمكن أن يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب"، و"جملة النشاط الذهني من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة شاملاً ما يتم به التفكير من أفعال ذهنية تبلغ أسمى صورها في التحليل والتركيب والتنسيق، وهو بهذا خاصية إنسانية"، و"اسم لعملية تَردُّد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكانت قلبًا أو روحًا أو ذهنًا بالنظر والتدبر لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء".

وقد ورد في بعض المعاجم تعريف مادي إلحادي للفكر تحت مسمَّى "الفكر الحر"، جاء فيه:" الفكر الحر هو النزعة في التفكير التي تبتعد عن المفهوم الديني لتفسير العالم ووضع قواعد الأخلاق في الحياة، مع الالتزام أصلاً برد القواعد الأخلاقية إلى ما يمليه العقل والتجارب".

مفهوم الفكر الإسلامي

توافر كثيرٌ من العلماء والباحثين لتحديد تعريف أو أكثر للفكر الإسلامي، ومن أبرز هذه التعريفات هو "كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث الرسول ﷺ إلى اليوم، في المعارف الكونية المتصلة بالله ﷻ والعالَم والإنسان الذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكًا"، أو "كل ما ألَّفه علماء المسلمين في شتى العلوم الشرعية وغير الشرعية

hiramagazine.com

بغض النظر عن الحكم على مدى ارتباط هذا النتاج الفكري بأصل العقيدة الإسلامية. أو نتاج الفكر الذي تصدى للفلسفات والنظريات الغربية ناقدًا لها وواضعًا البديل الإسلامي محلها"، أو "كل نتاج للعقل البشري الموافق لمنهج الإسلام"، أو "كل ما هو غير تجريبي من مقومات الحضارة الإسلامية سواء كان تشريعًا أو علم كلام أو ما شابه ذلك". وبعبارة أخرى هو "الجانب الفكري التصوري البحت الذي يقوم من كل حضارة مقام الخارطة الهندسية المصممة للبناء"، أو "هو فقه الوحي وفهمُ رجال هذا الفكر له، ثم شروحهم عليه"، أو "الحكم على الواقع من وجهة نظر الإسلام"، أو "المنهج الذي يفكر به المسلمون أو الذي ينبغي أن يفكروا به".

بالنظر في هذه التعريفات وما سبقها من تعريفات للفكر مجردًا عن الوصف أو الإضافة نلحظ الآتي:

١- أن الفكر إما أن يراد به الكيفية التي يدرك بها الإنسان حقائق الأمور التي أعمل فيها عقله، فيكون الفكر عندئذ بمثابة الأداة أو الآلية في عملية التفكير وما يلحق بها من طاقات وقوى وملكات عقلية ونفسية، وإما أن يراد به ما نتج عن ذلك "من خلال تلك العملية" من تصورات وأحكام ورؤى حول القضايا المطروحة.

ثم تتسع دائرة مفهوم الفكر أو تضيق تبعًا لمنطلقات المحدِّد لمفهوم الفكر؛ فإذا اتسع مفهومه اشتمل على الموروث الفكري للإنسان في جميع ميادين المعرفة والعلوم على الصعيد النظري. على أن هناك من يدخِل العلوم التجريبية والتطبيقية داخل مفهوم الفكر، فيشتمل على النشاط الإنساني بعامة بما يخرج مفهوم الفكر عن الفكر ليشتمل على مفهوم الثقافة بل الحضارة أيضًا، وربما تطرقت بعض التعريفات لتشتمل على ما هو أبعد من ذلك فتُدخل الوحي في مفهوم الفكر. وقد تضيق دائرة مفهوم الفكر حتى تنحصر في مجرد النظر العقلي في أمر ما، فيكون الفكر عندئذ منسوبًا إلى مبدأ أو مذهب أو طائفة أو أمة أو عصر.

٢- عندما يضاف الفكر إلى الإسلام أو يوصف الفكر بأنه إسلامي، فإن المفهوم يتأثر كذلك بالمنطلقات المشار إليها سابقًا، فإما أن يراد به كيفية عمل العقل وما يلحق به من القوى المدركة لدى الإنسان في ضوء الإسلام، ولذلك عرفه بعضهم بأنه "المنهج الذي يفكر به المسلمون أو الذي ينبغي أن يفكروا به"، وقد لحظ صاحب هذا التعريف بأن هذا المعنى الكيفي للفكر المتمثل في حركة الذهن للانتقال من المعلوم إلى المجهول ونحو ذلك من التعبيرات المختلفة التي تؤدي المعنى نفسه، هو ما استخدمه الأقدمون مثل "ابن سينا" و"الرازي" و"ابن خلدون"... ولخصها "الجرجاني" في تعريفاته بقوله: "الفكر ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول"، وهذا التعريف يربط بين الفكر والمنهج، ويلزم معه الإلمام بمدلول المنهج لغة واصطلاحًا.

٣- وإما أن يراد بالفكر الإسلامي ما أنتجه الفكر في ضوء الإسلام. ثم تختلف المنطلقات والغايات حول تحديد الفكر الإسلامي؛ فبعضهم يطلق مسمّى الفكر الإسلامي ويريد به كل ما أنتجه فكر علماء الأمة وباحثيها في ضوء مبادئ الإسلام وأحكامه وضوابطه، ولا يدّعي العصمة لهذا الفكر ولا يدخِل فيه الوحي "الكتاب والسنة"، وإنما يدخِل فيه ما خرج عنهما أو انبثق منهما.

وبالجملة فهو يفرق بين الإسلام وبين الفكر الإسلامي ويحترز من الخلط بينهما، ولكن يؤخذ على هذا التعريف أنه ربما أدخل بعض المذاهب المنحرفة أو التفسيرات الخاطئة لبعض عقائد الإسلام وشرائعه.

وهناك بعض التعريفات التي تتفق مع هذا التعريف في السعة والشمول لكل ما أنتجه الفكر المنسوب للإسلام، ويكفي فيه أن ينتسب أصحابه إلى الإسلام. وهذا التعريف لا يتقيد بما تقيد به التعريف السابق من كون الفكر لا يحسب على الإسلام إلا إذا وافق عقيدة الإسلام وشريعته وهديه. ولا شك أن هذا التعريف قريب من تعريفات بعض المستشرقين الذين يدخلون في الفكر الإسلامي الفلسفاتِ الدخيلةَ والعقائد الفاسدة، لكنه لم ينص على الوحي الإلهي، بل يظهر منه استثناء الوحي الإلهي من مسمّى الفكر.

٤- تنفرد بعض التعريفات، بالنظر في نتاج العقل

hiramagazine.com

نظرة موضوعية، بغض النظر عن المفكر فما وافق الإسلام من تراث الفكر الإسلامي أو أنتجه فكر المسلمين في ضوء الإسلام، فإنه يسمى فكرًا إسلاميًّا.

وبعدُ، فإنه يمكن أن يعرف الفكر الإسلامي في ضوء الخصائص الآتية:

• الجمع بين عمل الفكر كأداة وبين ما ينتجه الفكر من ثمار.

• أن ينصَبَّ الفكر الإسلامي على الناحية التنظيرية دون العملية.

• أن يعرَّف الفكر الإسلامي بأنه فكرٌ موجه أو بعبارة أنسب ملتزم ولكن في ضوء تعاليم الإسلام، فلا يتوافر الفكر في ظل الإسلام على الخوض فيما نهى عنه الشارع، ولا يتحرر من الضوابط الشرعية والأخلاقية، ولا يدخل فيما ثبت عن الله وعن رسوله ﷺ وما أجمعت عليه الأمة، وإنما يدافع عن ذلك ويُظهر حكمة الشارع فيه، ويلتمس العلل والمقاصد والبراهين والمسوغات لذلك في الحدود المشروعة، بمنهج نقدي مؤصل ينفي ما علق بالفكر الإسلامي من مغالات المغالين وتفريط المفرطين.

• لا ينطوي التعريف على منع البحث في المعارف والعلوم التي تقوم عليها حياة الإنسان على الاكتشاف والابتكار وإعمال العقل فيما خلِق له، وهذا ما حققه الفكر الإسلامي، فقد أسهم بقسط وافر في تأصيل كثير من النظم والقوانين الحضارية التي أصبحت بمثابة الأسس للحضارة الحديثة.

• لا يخلع التعريف المقترح على الفكر الإسلامي العصمة، ولا يوهم بأن الوحي جزء منه، بل ينصب على بذل الجهد واستفراغ الطاقة العقلية والنفسية فيما أفسحه الشارع الحكيم ﷻ، وقد يطابق الصواب نتيجة التزامه بالقواعد المنهجية واتصافه بالنزاهة والموضوعية، وقد يحتمل الخطأ وفقًا لما أُثر عن علماء الأمة ومجتهديها من قولهم: "مذهبنا راجح يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا مرجوح يحتمل الصواب". ■

(*) كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / المملكة العربية السعودية.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الربيع ننتظر

أيها المعانون الصابرون،
يا مُضْنَون! أبشِروا...
هذا الربيع بالبشرى آتٍ،
وبالدفءِ العذْب قادم...
فدَعواتكم إلى السماء رُفِعَتْ،
وتضرّعاتكم سُمعتْ،
وأمْنياتكم قُبلت...

* * *

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري*

أُلوغ بك
من رواد علم الفلك

هو "أولـغ بـن محمـد شـاه رخ بـن تيمورلنك"، أحـد فلكيي القـرن ٩هـ/١٥م. وُلد سـنة ٧٩٦هـ-١٣٩٣م في مدينة "سلطانية" من بلاد ما وراء النهر، ونشأ في بيت إمارة وسلطان؛ فقـد كان أبـوه حاكمًا لبلاد كثيرة ومقاطعات واسـعة ضمـت بلاد ما وراء النهر والأقاليم الشـمالية فـي "الهندسـتان"، واتخـذ مـن "هـراة" مركزًا لـه حتى منتصف القـرن ٩هـ/١٤م. وأمـا جده فهو القائد المعروف "تيمورلنك" الذي كان أميرًا على إقليم "كِشَ"، كوّن مملكةً عظيمة سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م بسمرقند، وبلاد فيجق، وخوارزم، وخراسان، وأذربيجان، وجرجستان.

عندمـا ظهـرت علـى "أولـغ بك" علامات النجابة والذكاء، ولاّه أبوه إمارة "تركسـتان" وهو في سـن العشـرين، جعـل "أولـغ بـك" من سـمرقند مركـزًا لإمارته، وظلت كذلـك نحو ٣٩ عامًا، ثـم تقلّد حكم البلاد بعد وفاة أبيه سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م وكانت عاصمة حكمه "هراة".

لقد برع "أولـغ بك" في فنون كثيرة، كالفلك والتنجيم والرياضيات وغيرها... واستطاع القيام بأعمال جليلة في مجالات تلك الفنون؛ فأنشأ مَدْرسة عالية في سمرقند، عهِد بإدارتها إلى "قاضي زاده رومي".

وعرف "أولـغ بك" بإسهاماته في مجال الفلك؛ حيث بنى مرصدًا في "دمشق" (وقيل في "سمرقند" سـنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م غايـة في الإتقـان والإبداع، وزوده بجميـع الآلات والأدوات المعروفة في زمانه، حتـى وُصـف بأنـه أحـد العجائـب، حيث جمـع العلماء سـنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م وعملوا أزياجًـا (جداول

فلكية) لأغراض الرصد. وأخرج من هذا المرصد زيجه المسمى "زيج كور كاني" (زيج جديد سلطاني) الذي ظل معمولاً به في الشرق والغرب قرونًا.

هذا وقد أشاد العلماء العرب وغيرهم، بجهوده القيمة؛ فأثنى عليه "حاجي خليفة" في كتابه "كشف الظنون"، وقال عنه المستشرق "سيديو": "إن أعمال أولغ بك الفلكية كانت تتمة ضرورية للأعمال الفلكية المأثورة عن العرب والمسلمين".

وبالتالي برع "أولغ بك" في علوم الرياضيات ولا سيما الهندسة وحساب المثلثات، وساعدت الجداول التي أنشأها في جيوب الزوايا وظلالها، على تقدم علم الفلك كثيرًا.

وبالإضافة إلى إسهاماته الفلكية، فقد كان معماريًّا ذا ذوق فني دفعه إلى العناية بالبناء؛ فشيد "الخانقاه" -وهي بيت ينزل فيه المتصوفة- التي تميزت بأعلى قبة في العالم أنذاك، و"مسجد أولغ بك" المسمى بالمسجد "المقطَّع"؛ وسمي بذلك الاسم، لأنه مزخرف من الداخل بالخشب المقطَّع اللون على النمط الصيني، كما شيد مسجد "شاه زنده"، والقصر ذا الأربعين عمودًا المعقودة بأبراج أربعة شاهقة، والمزين بصف من عمد

المرمر، وابتنى قاعة العرش أو "الكرسي خانه"، وشيد "جيني خانه"، ونقش حوائطه بالصور أحد الفنانين الصينيين البارعين الذين أعجب بهم "أولغ بك".

وكان "أولغ بك" شغوفًا بالشعر، محبًّا للشعراء، حيث اتخذ أحدهم شاعرًا له. كما عني بالتاريخ وألف كتابًا في تاريخ أبناء "جنكيز خان" الأربعة، بعنوان "أوغلولر أربع جنكيزي"، والظاهر أنه قد ضاع، وكما قال "لوبوفات": "لو بقي لكان جليل القيمة".

فضلاً عن ذلك كله، فقد كان "أولغ بك" فقيهًا دينيًّا، انكبّ على دراسة القرآن الكريم وحفظه، وجوّده بالقراءات السبع. وقد تحققت أمنية أجداده؛ حيث أصبحت سمرقند مركزًا للحضارة الإسلامية في عهد "أولغ بك"، تجمع الكثيرين من علماء الفلك والرياضيات والأدب، أمثال: "جمشيد"، و"قاضي زاده رومي"، والشاعر "عصمت البخاري" و"طاهر الأبيوردي" و"رستم الخورياني" وغيرهم.

وتوفي "أولغ بك" سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م بعد ما ثار عليه ابنه "عبد اللطيف" الذي استولى على "بلخ" وهزم أباه عند "شاهر خيه". ■

(*) جامعة عين شمس / مصر.

hiramagazine.com

نور الدين صواش*

سنان.. مهندس علم الزلازل

١ اندهش الباحثون عندما وجدوا أن سنان شيد آثاره على بُعدٍ من خطوط الصدع الزلزالية.. وقد ازداد اندهاشهم هذا عندما اكتشفوا أنه قام بتطبيق نظام يمتص الموجات الزلزالية ويقلل من تأثيرها على المباني.

قام سنان ببحوث معمَّقة وحسابات رياضية دقيقة ليختار المكان المناسب لجامع السليمانية بإسطنبول، وبعد الاهتداء إلى المكان شرع بتنفيذ المشروع.. بدأ أولاً بعملية كبْس التربة ورصّها بالأوتاد لتزداد متانة.. وبعد ذلك استهل بتأسيس القاعدة مستخدمًا فيها حجرًا خاصًّا وملاطًا يمتاز بامتصاص الموجات الزلزالية وتخفيف مفعولها.. ولكن بعد ما أتم التأسيس أوقف سنان عملية الإنشاء وراح يهتم بشؤونه الأخرى مدة استغرقت ست سنوات.. كانت الغاية طبعًا، تمتين القاعدة وترسيخها جيدًا..

وبعد مضي ست سنوات، استأنف سنان عمله في مواصلة ما تبقى من تحكيم القاعدة.. فقام بإنشاء مساند حجرية عالية داعمة للمبنى.. ثم وضع نظام تصريفٍ للمياه ليصون القاعدة من الرطوبة ويضبط صلابتها، بل وأضاف قنوات هوائية أيضًا لدفْع هذه الرطوبة خارجها حرصًا منه على الحفاظ على التوازن الهوائي في تربة الأساس، وقام بمد قنواتِ صَرْفٍ أيضًا لمنع نفوذ البخار الناتج عن سخونة التراب وحرارة المياه إلى الأساس.. ومن خلال كل هذه الأنظمة والتطبيقات، استطاع سنان تشييد صرح محكم ظل صامدًا أمام الزلازل قرونًا طويلة ولم يتأثر بها أبدًا.

يقول المعماري التركي "عبد القادر أقْ بينار" الذي أجرى بحوثًا عديدة حول آثار سنان وأعاد ترميم معظمها:

"إن أبسط زخرفة وأصغر نقشة في آثار سنان لم تُنحت عشوائيًّا، حتى الألوان فلها مهمة خاصة في هذه الآثار.. وواضح أن سنان سعى بآثاره هذه إلى محاكاة الجبال الأوتاد التي ذكرها الله تعالى في قرآنه، ليجعلها شاهقة عصورًا مديدة.. ومن الصعب جدًّا أن نجد مثيلاً لتطبيقاته الهرمية والكروية في قاعدة آثاره العتيدة". ■

نقار الخشب

مصدر إلهام البشر

لماذا ينقر نقار الخشب الأشجار؟ هل يقوم بالنقر عشوائيًّا أم بتحدد نقطة معينة؟ كيف لا يتأثر هذا الكائن من الصدمات التي يتعرض لها خلال النقر؟

يتغذى نقار الخشب بالحشرات والديدان المختبئة في جذوع الأشجار، ولكن العجيب أنه يحدد موقع الحشرة داخل الجذع دون أن يراها بعينه، ثم يقوم بحفر فجوة تنتهي إلى موقع الحشرة مباشرة.. طبعًا يستعمل منقاره الإزميلي الحاد في هذه العملية، وعندما يصل إلى غرضه يطلق لسانه اللزج ويلتقط الحشرة ثم يُنزلها إلى معدته بهناء.

والملفت للنظر أن هذه الحشرات تتسبب في يبْس الشجرة وموتها إذا ما بقيت تعيش في جذعها.

مُنح نقار الخشب قدرة خارقة في عملية النقر وسرعته؛ حيث تصل عدد نقراته في الثانية الواحدة إلى ١٠ نقرات، وتصل سرعة النقرة الواحدة إلى ٤٠ كيلومتر في الساعة. ولكن كيف لا يتأثر هذا الكائن من صدمات النقر هذه؟

اكتشف العلماء أن هذا الطير يملك تقنية مذهلة يتم من خلالها امتصاص صدمات النقر وتقليل حدتها بكل سهولة.. وهي تقنية تتألف من أنسجة ليفية -شبيهة بالإسفنج- تربط جمجمته بمنقاره، ولسان رفيع لزج ملفوف مثل النابض داخل الجمجمة، فبهذه التقنية تنخفض الصدمات وتتلاشى وتغيب دون أيّ تأثير سلبي. إنها تقنية تذكرنا بالنوابض الحلزونية التي تمتص الصدمات الناتجة عن عدم استواء الطريق في السيارات التي يركبها الإنسان.

هذا وإن آلة كسر الصخور أو مطرقة الخرسانة الهوائية التي يعمل بها الإنسان أثناء تعبيد الطرق وتطوير الشوارع، اختُرعت استلهامًا من هذا الكائن الصغير... ما رأيك؟ ■

(*) كاتب وباحث تركي.

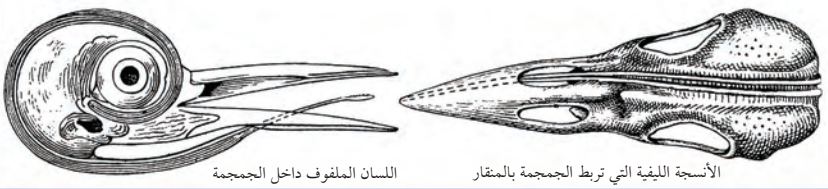

الأنسجة الليفية التي تربط الجمجمة بالمنقار — اللسان الملفوف داخل الجمجمة

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201004871038+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Turkiye

Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@woxmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201065523089 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

رجال
ولا كأيّ رجال

فريد الأنصاري

لولا أني رأيتُهم لقلت إنه مجرد وهمٍ أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام أو نُسخ أخرى لستُ أدري.. ولقد رأيتهم وما كذبت عيني؛ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا.. فلله درّهم.. أيّ رجال هم!؟

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+

www.daralnile.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٧٥ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

أفياء العناية

إذا افترشوا التعاونَ ربحوا،
ولم يمسسهم أذى وعاشوا بهناء،
وإذا بالكرم الواهب تلك النعماء،
قد حوّل المكان رياضا حالية غنّاء...

* * *

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 40
www.hiramagazine.com
Ocak - Şubat 2014 Sayı: 40 Fiyatı: 6 TL.